

رسائل الذهب



علي الجابر

الأعمال النثرية الكاملة

دار الشروق







عَلَى الْخَيْرِ  
الْأَعْمَالِ النَّزِيَّةِ الْكَامِلَةِ

الطبعة الأولى

١٤٠٩ هـ - ١٩١٩ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دارالشروق

الطبعة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤

بروكينا : شروق - تلکس : 93091 SHROK UN

بيروت : ص.ب. : ٨٠٩٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

بروكينا : دانسروكي - تلکس : SHROK 20175 LE



دار الشروق



## تقديم بسم الله الرحمن الرحيم

أيها القارئ الكريم

لقد عرفتم المرحوم علي الجارم شاعراً كبيراً وديوانه الشعري الكامل طبع في «دار الشروق» للطباعة والنشر عام ١٩٨٦ وعرفتموه لغوياً متمكناً حفظ القرآن كله في طفولته ثم التحق بالأزهر الشريف طالباً مجتهداً لأعلام الأساتذة في هذه الفترة (١٨٩٦ - ١٩٠٤م). ثم التحق بمدرسة «دار العلوم» لكي يتفوق فيها ويبعث في بعثة دراسية عام ١٩٠٨م إلى جامعات إنجلترا لأربع سنوات ثم يعود مفتشاً للغة العربية بوزارة المعارف ثم كبيراً لمفتشيها ثم يُختار عضواً بمجمع اللغة العربية عام ١٩٣٢ منذ بدء انشائه وانتشرت كتبه في النحو والبلاغة في جميع البلاد الناطقة بالعربية هدياً وإرشاداً للمتعلمين. ثم عرفتموه نائراً قصاصاً عندما كتب رواياته الأدبية، هذه الروايات التاريخية التي كتبها بأسلوب شاعر فجاءت نموذجاً للأدب الرفيع واللغة الأصيلة التي عُرف بها الجارم من خلال كل إنتاجه. استمع إلى ما قاله المرحوم الأستاذ أحمد العوامري عضو مجمع اللغة العربية في رثائه للجارم الذي كتبه في مارس ١٩٤٩: «ثم يخرج علينا في الأعوام الستة الأخيرة - وهو أحوج ما يكون إلى الراحة والجمام - بشماني روايات هي من مفاخر ما كُتب في القصص التاريخي بالعربية. ولقد قصد في كل رواية إلى قطعة بارزة من التاريخ العربي أو المصري فدرسها وبلغ إلى أعماقها وتغلغل في طبائع أشخاصها وبيئاتهم، حتى إذا اكتملت من نفسه هذه العناصر واستقام له سننها، عمد لها فحاكها من غير تكلف ولا معاناة في لفظ مترقرق وسرد محكم وتصوير بارع. والعجب من الجارم الذي لا عهد لنا به من قبل قصاصاً كيف استوت له هذه الملكة في كهولته، وكيف حذق أن ينسج من خيوط التاريخ الجافة هذا النسيج البديع؟».

كما نقرأ للمرحوم الأستاذ الدكتور عباس حسن في كتابه «المتنبي وشوقي» في أولى طبعاته عام ١٩٥١ قوله في صفحة ٣٨٢ ما نصّه: بقي من خصائص شوقي التي امتاز بها على المتنبي النثر الرائع حقاً فله في هذا الميدان كتاب سماه «أسواق الذهب». وما أحسبني مغالياً إذا قلت إن النثر الأدبي البليغ والنثر العلمي المتأدب الرفيع لأديبنا المرحوم الأستاذ علي الجارم ليمتاز به الجارم على المتنبي وشوقي وسائر شعراء العرب قديماً وحديثاً كما تنطق بذلك كتاباته النثرية الصادرة عن موهبة فنية أصيلة جعلت منها جميعها سلاسل الذهب لا مجرد «أسواق الذهب».

ولقد أثرت أن أقدم هذا القصص التاريخي كاملاً وفي مجلد واحد حتى يأخذ مكانه في المكتبة العربية بجانب ديوان شعره دلالة على عظمة هذا الأديب الكبير وعلى بلاغة أسلوبه العربي الرصين. وسبحان الموفق.

يناير ١٩٨٨

دكتور أحمد علي الجارم



فارس بنی صدران

سپتمبر ۱۹۴۵

سرى موكب الدنيا يشيد بذكره وينقل للأسماع روعة شعره  
حسام بكف الدهر قد سل حقة وأغمده ريب المنون بقبه  
بدر الدين علي الجارم





























بالسوط ليشب به فوق مسيل ماء يبلغ عرضه عَشْرَ أَذْرَعٍ ، دون أن يبتلّ حافر فرسه ، وكان يقيم سداً مرتفعاً من جذوع الأشجار ، ثم يهزم جواده فيشب فوقه كأنما يطير في الهواء . وقد أفزعت هذه الأفانين واصلاً ، وخاف عليه مغبتها ، فافضى إلى أمه بمخاوفه ، ولكن أمه لم تلبث حين سمعت حديثه أن هزّت كتفها في قلة اكتراث ، ونظرت في وجهه واصل بعد أن أطبقت عينها اليسرى في غرور وكبرياء ، وقالت : ما عليك من هذا يا بن عبدالله . إنّ بنى حمدان يجب أن يعملوا ما لا يستطيع عمله الناس . وإلا فلنمّن أعدت خطيراتُ الأمور ؟

شغلت الشام وبخاصة مدينة حلب في هذه الأيام بالحديث عن نجلاء الخالدية، وسرت شهرتها بالجمال البارع من فم إلى فم، وتناقل الناس في إعجاب وإكبار ما ازدانت به من خلق ودين ولطف وأدب وخفة رُوح وعلو نسب. وكانت نجلاء حقاً كما يصفون وفوق الذي يصفون، فقد وهب الله لها وجهاً واضح الجبين، رائع القسَمَات<sup>(١)</sup>، به عينان يتألق فيهما الطهر ويُشعّ منهما النبل وكرم المحتد، ومنحها نفساً أصفى من قطرات الغمام، وأقرب إلى نفوس الملائكة الأطهار. نشأت في بيت علم وأدب ينتمى إلى أسرة رفيعة المجد باذخة الشرف، وقد بلغ في هذا الحين أخوها محمد وسعيد الخالديان منزلة أثيرة عند سيف الدولة بن حمدان أمير حلب، وكانا يُشرفان على خزائن الكتب في قصره. فنمت نجلاء في هذا البيت الكريم، وتعهدها أخوها بالتعليم والتهديب حتى برعت في فنون الأدب، وقالت الشعر الجيد الرصين. وكانت دارها مثابة الأدباء والشعراء والعلماء يغشونها لينعموا بطرائف الأحاديث والأخبار، وروائع الشعر والأدب، ولينالوا من كرم نجلاء وحسن ضيافتها ما يعزّ على موائد الملوك.

وكثيراً ما أشاد بمدحها الشعراء، وكثيراً ما غنى المغنون بحسنها فرددت أفاق حلب هذا الغناء عذباً مشجياً. وكثيراً ما كانت نجلاء تسمع هذا الغناء فتبتسم وتهز كتفيها في أنفة وشيء غير قليل من الخجل.

شغل الناس بنجلاء، وتسابق فتيان الأسر الكريمة إليها يستجدون نظرة رضا، ويتمنى كل

---

(١) قسَمَات الوجه: محاسنه.













أشعة الجنة: فيه الجمال، وفيه النبيل، وفيه الشرف. رأى أبو فراس هذا الوجه فاضطرب قلبه، ولم يحاول أن يطيل النظر هيبية وإجلالاً، فقد ذهل عن نفسه، وأحسن على الرغم من ذهوله أن هذا الوجه كان يُرسل ابتسامة مشرقة طاهرة كزهرة الربيع، بعثت في نفسه الأمل، كأنها اللوح السابح يراه الغريق من بعيد، وقد اصطلمحت عليه الأمواج، وجاءه الموج من كل مكان، فبهَّرع إليه، ويتشبَّث به، ويرى فيه بارقاً من النجاة.

خرج أبو فراس من الدار، وأخذ سَمته إلى قصره كالمأخوذ، وقد سمع نفسه وهو يردد:

تَبَسَّمَ. إذ تَبَسَّمَ عن أقاحي وأسفر حين أسفر عن صباح















- لن أكتملك شيئاً يا سيدى . إن قرعويه هذا يطاردنى فى حلب ، ويلح فى خطبتى ، وكأنه لم يرد أن يتركنى أياماً أتمتع فيها بلذة نسيانه ، فأرسل غلامه ليتجسس علىّ ، ويكدر صفوحى بذكره .

- وهل قرعويه هذا من النفوذ والصولة بحيث ترهبينه وتلجئين إلى مصانعه؟

- له من المكانة عند سيف الدولة فوق ما يتخيل المتخيلون . ثم هو ماكر ختال ، يلبس لمصارعة الأسود إهاب الثعلب .

- هوّنى عليك يا سيدتى ، فإن فى سيف حبيبك مصرع الأسود والثعالب ، ثم أخذ يفاكهها ويهوّن عليها الأمر حتى ضحكت ، وحملت الريح رنين ضحكها عذباً حلوا النغم فامتزج بتغريد الطيور .

ولما قرب أبو فراس من الخيام لمح أسامة خادمه وهو ينزل عن فرسه ، فأسرع إليه وسأله عن سبب قدومه ، فأخبره بأن رسالة عاجلة جاءت من سيف الدولة لدعوته إلى حلب دون أن يعوّق . وهنا التفت أبو فراس إلى نجلاء حزينة كاسفاً ، والدمع يكاد يشب من عينيه وقال :

- هكذا الدنيا لا يتم بها سرور . فأجابته مسرعة :

- لا . لا . إن الدنيا كلها سرور ، سر إلى ابن عمك غداً وستراني قريباً فى حلب . إن الفرقدن لا يفترقان .

















ورأيه، فدار حولهم حتى حاذى جانبهم، فأرادوا أن يتجهوا نحوه بخيولهم، فاضطربت الخيل واصطكت بعضها ببعض، واهتبل أبو فراس هذه السانحة فأغمد حسامه فى فرسين فسقطا على الأرض، ثم تراجع قليلاً، فأراد الفرسان أن يتبعوه فارتطمت الخيل بالفرسين الساقطين، فانقضَّ عليهم كما ينقضُّ النمر، وأعمل فيهم سيفه ضرباً وتقتيلاً، وفى هذه اللحظة هجم عليه زعيمهم وكان ضخم الجثة، وكأنه قطعة الجبل، فضرب بسيفه سيف أبي فراس فأطاره من يده، فوثب أبو فراس من سرجه إلى صهوة جواد هذا الفارس الشعشاع، حتى إذا كان منه وجهاً لوجه، مد ذراعه الحديدية إلى عنقه فعضره بيسراه. واختطف بيمنه سيفه من يده. وضربه ضربة أطاحت رأسه. فسقط مجذلاً. وحينما رأى من بقى من العصابة ما حلَّ بزعيمهم طاروا من اللُّعْر، وهم لا يكادون يصدِّقون أنهم أحياء، وعاد أبو فراس إلى جواده فامتطاه كأن لم يحصل شيء، وكان هدوء الليل لم يزعه صليل سيف، ولا وثبة جواد، وجال بخاطره وهو فى طريقه إلى داره أن يترنم بقوله:

إذا كان منا واحدٌ فى قبيلة      علاها، وإن ضاق الخِنَاق حَمَها  
وما اشْتَوَرَتْ إلا وأصبح شيخها      ولا احْتَرَبَتْ إلا وكان فتاهاً<sup>(١)</sup>

---

(١) اشتر القوم: شاور بعضهم بعضاً. واحتربوا: تحاربوا.









- لأن الكلاب تَلَج فيه . ثم ضحككت ضحكة الظافر المنتصر، وربّت كتفه وقالت :
- من أين لك هذا المال يا جَرْد؟
- من قرعويه .
- هنيئاً لك بسيدك !
- وهنيئاً لك بسيدى !
- أنا !
- نعم أنت ، فالمال لك ! وأنا الناقة التى تحمل الماء وهى عطشى .
- متى بدأ سيدك يتصدق على العجائز؟
- حينما علم أن فى أيديهن مفاتيح الجنة .
- إن جنتى أعلى من أن تفتح بمائتى دينار .
- هذه خطوة تليها خطوات ، ونفحة تتبعها نفحات . وثمان أول طريقة على ذلك الباب القدسيّ الطاهر .
- اكشف اللثام عن القول ودعنى من الكنى .
- تعلمين ميل سيدى المبرّح إلى نجلاء . وتعلمين أنها تقابل فتونه بالصدّ، ولن يغيب عنك أنها بعد صداقتها لأبى فراس زاد إعراضها وجفاؤها لسيدى .
- أعلم هذا ، وأعلم إلى جانبه أنى لو كنت فى شباب سيدتى وجمالها ، ما عملتُ غير ما عملتُ . إن أبا فراس لو علّمتُ به الحور لفرّت من الجنة للقاءه . وأين منه سيدك يا لُكّع<sup>(١)</sup>؟
- ذلك المتكبر الصلّيف؟ !
- هو متكبر صلف علىّ وعليك يا غيّى ، أما فى مجالس الحسان فحنان وسحر ورقة ، وعلى أية حال ماذا تريد منى؟
- أريد أن تقطعى الصلة بينه وبين نجلاء .
- وكيف؟
- لا توصلى رسائلها إليه ، وسنُعزّى خادمه سهماً بالآلا يوصل رسائله إليها .
- هذا حسن ، ثم؟

---

(١) اللكّع : اللثيم .







الناس جميعاً أن بنت الخالديّ ستستمد من الهزيمة قوة الانتصار، قومي يا سلمى فلن ترينى بأكية بعد اليوم.

أما أبو فراس فكثرت وساوسه، واختلط عليه الأمر، ولزِم داره، وبينما هو يناجى شجونه الضائعة، ويسخط على الدنيا وما فيها من خداع ورياء وختل، إذا رسول سيفة الدولة يدخل ويبيده رسالة من سيده يخبره فيها باقتراب الروم من مَرْعَش، ويهول له في الأمر، وينبشه بأن الفرصة الآن سانحة للإغارة على حصن برزويه واستنقاذه من أيديهم. ما كاد يتم قراءة الرسالة حتى امتطى جواده وانطلق إلى قصر الحلبّة وهو يسابق الريح، وقد شعر في نفسه بشيء من السرور لهذه الدعوة إلى القتال الذي قد ينسيه لواعج الحب، أو يريحه منها إلى الأبد.



































على بشر الخزامى وحسان بن على وعقيل الحارث . أما غالب التميمى فلم يقفوا له على أثر، لأن مارينا أسرعت إلى داره فأخبرته بظهور الجريمة ، وحثته على الهرب .

طار أبو فراس إلى «برج الروم» على جواده، كأنه القدر المحتوم، ووراءه خادمه أسامة، وبعد ساعة لمح على الأرض أثر جواد يسلك الطريق نفسها، فثارت شبهاته وظنّ الظنون، وخاف أن يكون أعداؤه قد سبقوه إلى نجلاء لنقلها إلى مكان آخر، فركز جواده مستحثاً فانطلق ينهب الأرض كأنه البرق الخاطف، أو الخيال الطائف، وبعد ساعتين ظهر شبح فارس، ترفعه النجوم، وتخفضه الوهاد، فصاح بجواده وزجره زجر المتيش، وألهب جنبه بالسوط، حتى إذا دنا منه وأحس الفارس قرب حائل الفرار فكبا به فرسه، فقبض عليه أبو فراس وتأمل وجهه فإذا هو فهد خادم قرعويه، فسأله عن طيئته، فتلعثم وتردد ثم قال بعد أن بلع ريقه مرتين:

- أظن أنني لم أكن أسيراً فأزاً، وأعتقد أن لأى إنسان الحق فى أن يذهب فى أرض الله متى شاء وحيث شاء دون أن يُرهق بسؤال.

- صحيح، إلا إذا حامت الشبهة حول شخص يريد الفساد فى الأرض.
- وأى فساد يخشى من فارس يمتطى جواده ليسافر من بلد إلى بلد آخر؟
- الفساد فى الغرض لا فى السفر، وفى النية لا فى الوسيلة، فإلى أى بلد أنت ذاهب؟

- إلى «بالس».

فالتفت أبو فراس إلى أسامة وقال: فتشه يا أسامة. ففتشه فلم يجد معه شيئاً، ثم أعاد

































أَبَيْتِي لَا تَجْزَعِي كُلُّ الْأَنَامِ إِلَى ذَهَابِ  
نُوحِي عَلَى بَحْسَةِ مَنْ خَلْفَ سَتْرِكَ وَالْحِجَابِ  
قُولِي إِذَا نَادَيْتِي وَعَيَّتُ عَنْ رَدِّ الْجَوَابِ  
زَيْنُ الشَّبَابِ أَبُو فَرَا سَ لَمْ يُمَتِّعَ بِالشَّبَابِ!















































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































































- نعم الفكرة! نرجو الله أن يهيئ لنا الخير. ثم التفت إلى ابنه وقال: هلم يا بني، فقد آن أن نراجع دفاتر حساب اليوم.

وانفردت أمينة ببنت أختها كالمشغوفة الوالهة، لأنها أثارت في نفسها ذكريات عزيزة عندها، أثيرة لديها. فقد شاهدت في زبيدة صورة شبابها الغض، الذي كان فتنة العيون، وشرك القلوب. وعادت بخيالها إلى الماضي منذ أكثر من عشرين عاماً، فرأت نفسها في بيت أبيها بشارع البحر برشيد، وهي تنظر إلى النيل من خلال مشربية أدق الصانع صنعها، وكان النهار قد أخذ يولى، لأن شمس الأصيل ألقت بشعاعها على زجاج المنازل ذهبياً هادئاً الوميض، ثم ترى نفسها وهي تتجه بعينيها إلى اليسار فتري أباهما في طلاته وبشاشته وجميل زيّه، يحدث رجلاً غريباً قد يكون تخطى الثلاثين، تظهر عليه دلائل النعمة والجاه، وهو إلى ذلك جميل القسمات حلو اللفتات، يصغى إلى الحديث ويبتسم، وربما زاد بين الكلام كلمة أو كلمتين، ليدل على العناية وحسن الإصغاء. ثم تتخيل نفسها وقد أسرعت دقات قلبها، ودبت في جسمها نشوة عجيبة لم تعرف لها كنهها، ولم تدر لها تأويلاً. وشعرت بحافز عنيف لا تستطيع صدّه، يدفعها إلى إطالة النظر إلى هذا الرجل الغريب وملء عينيها منه، فتتأمل ثانية فتري أباهما وقد دخل به إلى الدار، وتسمع حركة الخدم والجوارى التي اعتادت أن تسمعها كلما زارهم ضيف عظيم، ثم ترى «زهرة» الجارية وهي تدخل على سيدتها لاهثة، بعد أن قطعت السلم وثباً وهي تقول: لقد بُعث سيدى يخبرك بأن ضيفه الليلة السيد أحمد المحروقي أكبر تجار القاهرة وأعظمهم جاهاً، فيجب ألا يُدخر جهده في أن يكون العشاء لائقاً بمثله ومثل سيدى. ثم ترى الدار بمن فيها وقد نهضت نهضة واحدة لإعداد العشاء. وتستمر أمينة في هذه الذكريات ساهمة، تقلّب صفحة من كتاب خيالها وتنظر في أخرى، فتترأى لها تلك الليلة التي باتت فيها على سريرها، وهي تفكر في الضيف، وتدهش - لم تطيل فيه تفكيرها، وتحاول أن تختار من ماضيها صورة تمحو بها صورته، فإذا بها تعود إليه قوة شديدة، فتمحوها ما جهدت في تذكره من صور. ثم تنظر في صفحة ثالثة، فيتجلّى لها ذلك الصباح المشرق الذي زاده انعكاس أشعته على النيل بريقاً ولألاء، وقد دخلت عليها أمها باسمه مشرقة الوجه كالصباح، وهي تقول: مبارك يا أمينة، لا تنسى أن تقرئى لنا الفاتحة في السيدة زينب. ثم تتخيل ما أصابها من الوجوم والذهول، وتذكر ما كان يهمس به قلبها وهي تبكى أمام أمها حين قالت لها: لقد عرفت كل شيء من النظرة الأولى أيتها الماكرة المتجاهلة، إنه

الحب . . إنه الحب . . إن للحب إلهاماً لا يكذب فلم توارين؟ أبكى كما شئت أمام أمك ،  
فهذا دأبك يا بنات حواء ، تتخذن من البكاء لغة مبهمّة لكل ما يجول في نفوسكن حتى لا  
تُفهمن ، وحتى تَبقين سرّاً في البشرية غامضاً .

تخيّلت أمانة كل هذه الصور في ثوان ، ثم اتجهت إلى زبيدة وقالت : علمت من  
أمك أن محموداً العسال يلحّ في زواجك وأنتك تأبين . إن محموداً شاب تطمح إليه عيون  
الفتيات ، ولكنّ للقلوب أسراراً لا تدرك ، ولهواها سرائر لا تعلم . ولعل لك آمالاً تسمو بك  
عن رشيد وأهلها ، ولعلك تودين أن تكوني بالقاهرة كخالتك ، جليسة نساء الأمراء والكبراء  
وأرباب الدولة ، إننى أرحب بك يا زبيدة فى هذه الدار سيّدة مسيطرة ، وأقصى أمانى أن  
أراك زوجاً لابنى محمد ، وهو شاب كريم الخلق ، رفيع المنزلة ، يمهده أبوه السبيل من  
بعده ، ويمدّله أسباب الشهرة مدّاً ، ألا تحبين يا زبيدة أن أكون أمّاً لك ثانية ؟ إن شمسك  
فى رشيد لا يتسع لها الأفق ، أما هنا فستنفذ أشعتها بعيدة وضّاءة ، وستحدث كل بيت من  
بيوت الأمراء والأعيان ، وكبار الفرنسيين أنفسهم عن زبيدة وجمال زبيدة .

أطرقت زبيدة وطال إطرأها ، وجال بخاطرها سريعاً أن العرض مقبول ، وأن زواجها  
بابن المحروقى سيكون من ورائه الثروة والشهرة ، والجاه العظيم ما فى ذلك شك . ولكن  
أين هو من محمود العسال كيفما أطنبوا فى وسامته وكريم خلقه ؟ لا شيء . إن فى محمود  
تلك الرجولة الخشنة التى تشتهيها كل فتاة ، لتكمل بها ما فى أنوثتها الناعمة من نقص .  
لا . . . شتان ما بين الرجلين ! ثم ما لها ولمحمود وغير محمود . إن للعرافة نبوءة يجب أن  
تتحقق ، وهى واقعة لا محالة إذا أطالت لها عنان الصبر . فرفعت رأسها إلى خالتها وقالت :  
يجب يا خالتى أن ننسى الحديث فى الزواج الآن ، حتى تزول تلك الغمة التى أطبقت على  
مصر ، وحتى نرى آخر سفينة وهى تحمل الفرنسيين إلى بلادهم . إن زواجى بابن خالتى  
شرف لا يناله مثلى ، ولكن الزواج الآن أشبه بالضحك فى المآتم ، والرقص فى بيت  
يحترق . فنظرت إليها أمانة نظرة الخبيرة الطّبة بالنساء وخداعهن ، ثم تنهدت وقالت : كثيراً  
ما يرغب الإنسان عن الثمرة الدانية ويأبى إلا أن يتسلق لغيرها ! ومن يدري ؟ ثم ضحكت  
وقالت : تعالى أيتها الفتاة المقدّرة المدبّرة فقد أعدّ الطعام .

مرّت أيام فسافر على الحمامى إلى رشيد ، وبقيت زبيدة فى بيت خالتها ، تلاقى فيه  
صنوف الكرامة والعطف ، وتزور بها خالتها سيدات القاهرة وكرائم أسرها ، فزارت

السيدة نفيسة المرادية زوج مراد بك ورأت فى قصرها من الفخامة وأبهة الملك ما يقصر  
دونه البيان، وشاهدت فى السيدة نفسها صورة بارزة للعظمة غير المتكلفة، التى لم يستطع  
زوال الملك أن يغضّ منها. وزارت بيت الشيخ خليل البكرى، وهفت نفسها إلى زينب  
البكرية، التى كان لها من الجمال والإدلال وحسن الحديث وسحر الأنوثة، ما يفتن  
ويُغرى، فأحببتها وأكثرت من ازديارها.

وبينما هى جالسة ذات صباح مع خالتها إذا بإحدى الخادِمات تقول: إن سيدى  
محموداً العسال قد حضر وهو يصعد فى السلم. فأسرعت زبيدة إلى شعرها تسويه، وإلى  
ثوبها تصلح من غضونه، وقد دقّ قلبها واحمر وجهها، ولمحتها خالتها فتنهدت. ثم دخل  
محمود مشرقاً بسّاماً، فحيا زبيدة وقبّل يد خالتها أمينة، التى أخذت تصبّ عليه وإبلاً من  
عبارات الترحيب ومختلف الأسئلة، فقصّ عليهما كل ما لديه من أخبار رشيد، وهناً زبيدة  
بسلامتها، ثم اتجه إلى السيدة أمينة قائلاً: لقد أدهشنى اليوم أن أرى حوانيت المدينة  
مقفلة، وأن أرى الناس فى الشوارع جماعات يتهايمسون كأنما حز بهم أمر، أو حلت بهم  
كارثة.

- لقد توالى عليهم المظالم يا محمود، وكانت قاصمة الظهر تلك الضريبة الأخيرة  
التي لم تترك فقيراً ولم تُبق على غنى. فالذى رأيته اليوم مظهر من مظاهر سخطهم، فإنهم  
إذا فدحهم ظلم أغلقوا متاجرهم والتجئوا إلى الأزهر يستغيثون برجاله.

فهزّ محمود رأسه فى حزن وألم وقال: وبمن يستغيث رجال الأزهر يا تُرى؟  
ثم أحسّ أن المجلس طال به، فتحفّز للانصراف، وودعته خالته وذهبت معه زبيدة  
خطوتين أو ثلاثاً، فنظر إليها نظرة طويلة وقال:  
متى يا زبيدة؟ فأسرع إلى نجدتها عذرها التى خدعت به خالتها، فمسّت كتفه فى رفق  
وقالت: حتى يخرج الفرنسيون يا محمود.

- ٧ -

ذهب محمود إلى سوق المغاربة غاضباً آسفاً، يفكر فى هذا العذر الجديد الذى  
سدت به عليه زبيدة طريق الأمل، وسأل عن الحاج محمد السوسى فأرشد إلى دكانه، فرآه

مغلقاً. ثم سأل عن داره فوصفت له، فطرق بابها ففتحت له العجوز خائفة مرتابة، فقد تكرر في هذه الأيام تطفل الجند على المنازل. ولما سمعت لوزا صوته كاد يجن جنونها ويضطرب ميزانها، وشعرت بنار مشتعلة تدب في أوصالها، وودت لو أنها قطعت السلم بوثة واحدة، لتقع بين ذراعى حبيبها، وتغمر وجهه بالقبل، ولكنها كبحت جماحها جهد ما تستطيع، واستنجدت بالطبيعة الإنجليزية الرزينة، وقالت دون أن ينم صوتها عن شيء: أبى! أبى! أبى! أسمع صوت محمود العسال بالسلم. فنهض نيكلسون فرحاً وصاح: أهلاً بولدى، أية ريح سعيدة طوّحت بك إلينا؟ لن أحسّ بعد اليوم ألم الغربة والنفي. ثم عانقه طويلاً وشدّ على يديه في محبة وشوق وتقدمت إليه لورا تتكلف الابتسام وتجاهد عينيها ألا تهتكها سِتراً، وقالت في تلثم: مرحباً يا محمود، إنك صورة من رشيد التى أحبها، فالיום أراها كما هى ولا أشعر بلوعة نحو أهلها. ثم جلسوا إلى القهوة بعد أن أعدتها لورا، وبدأ نيكلسون الحديث فقال: كيف حال الفرنسيين فى رشيد؟ فأجاب محمود وقد زاد سخطه عليهم وعزم على أن يبدل نفسه فى مقاومتهم، بعد أن سمع من زبيدة اليوم أنهم الحائل بينه وبين الزواج بها: لقد أرسلوا إلينا بحاكم مضطرب الرأى، يلين مرة حتى تظنه ماء زلالاً، ويقسو أخرى حتى تحسبه نار الجحيم. لم يف بوعده واحد من تلك الوعود التى ملأ بها خطبه وأحاديثه والرشيديون فى جمهرتهم لا يثقون به ولا يلقون إليه بقياد، وهم كتلة مخيفة من العصيان والتمرد، فقد فرض على الأهلىن - ولم يكدر يستقر فى كرسى الحكم - ضريبة فادحة، قوبلت بثورة صاخبة وعصيان جامح، ولولا هذه المدافع الجديدة ما استقر لهؤلاء الغزاة أمر. وفى مساء يوم رأى أحد العلماء الذين قدموا مع الحملة - ويسمونه دينون - من برج أبى منظور العمارة الانجليزية وهى تهجم على العمارة الفرنسية بأبى قير، وتصلبها ناراً حامية، وسمع أهل المدينة الضرب عنيماً متواصلأً، وطارت إليهم الأخبار بأن الإنجليز دمروا جميع سفن الفرنسيين، فوثبوا من الفرح، وطاشت عقولهم، ومشوا فى جماعات يصيحون ويهللون ويكبرون، ولم يستطع مينو أن يعمل شيئاً فأغضى إغضاء الذئب الضغن الحقود.

- حقاً إنه كان نصراً مبيناً يا محمود، فإن هذه الموقعة ستسد الطريق بين نابليون وبلاده، وستقضى على آماله فى ضرب إنجلترا وإنشاء دولة شرقية فرنسية. وستشدد من عضد الممالك الضعيفة بأوروبا وتدفعها إلى محاربة فرنسا وتحديها.

- لله الحمد والشكر: ثم قام أهل رشيد بثورة عنيفة، حينما وصلت السفينة التى

تحمل السيد محمد كريم مصفداً ليشنق بالقاهرة .

- إن هذا السيد بطل من أبطال التاريخ يا محمود ، وكل جريمته عند الفرنسيين أنه جاهد في سبيل وطنه ، وكتب سرّاً إلى مراد بك يدعوهُ إلى صدّهم ومحاربتهم . ولقد علمت أنه لقي الموت شهماً كريماً ، وأن الفرنسيين راودوه على أن يفتدى نفسه بثلاثين ألف ريال ، فأبى في ازدراء وشمم ، وأجاب فانتور كبير تراجمة الحملة وهو يلح عليه في قبول الفدية ، ويلحف : «إذا كان مقدراً علىّ أن أموت فلن يعصمني من الموت مال . وإذا كان في الكتاب أن أعيش كان بذل المال عبثاً» . ثم ضُرب بالرصاص في ميدان الرميّة فلقى ربه شهيداً . فلمعت عينا محمود وقال . إن البطولة لن تموت ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ .

- هذا صحيح يا محمود . أعندكم هذا في كتابكم ؟

- نعم ، وكـم في القرآن من أدب وتشريع وحكمة وهداية . ثم إن الذي يزيد في سروري ويبعث في نفسي نشوة الأمل ، أن مينو قُلق به مكانه في رشيد وأُحسّ بالحرج ، فقد قبض أحد العربان على رسول له إلى كليبر حاكم الإسكندرية ، فرأى معه رسالة ترجمها لنا أورلندو ، يلحّ فيها على كليبر في إمداده بالرجال ، لأن حاميته لا تزيد على أربعمئة رجل ، ويخبره فيها أن العرب يزعمونه ليلاً ونهاراً ، وأن الأهليين يثورون عليه لأقل سبب ، وأنهم استخفوا بسلطة الفرنسيين بعد نكبة أسطولهم . ثم يقول : لقد تحرّج مقامي هنا ، فلأنني ما جئت من فرنسا لأدفن في هذه المدينة ، أو لأقوم فيها بجمع الضرائب .

- سمعنا أنه أحرق قرية السالمية .

- نعم ، فقد قتل بعض رجالها ثمانية من جنده ، فأمر بقتل كل من يحمل السلاح فيها ، وصادر جميع ما بها من الماشية ، ثم أضرم النيران في القرية .

- هذا أمر له ما بعده يا بنى ، وسيف الظلم مفلول دائماً . هلم لنشهد اليوم اجتماع الناس بالأزهر ، فقد أخبرني الشيخ إسماعيل البراوي أن رجل الثورة يغلي بالقاهرة ، من أجل هذه الضريبة الجديدة الفادحة ، التي ستأتى على كل ما بقى عند الناس من صامت وناطق .

ثم سارا صوب الجامع الأزهر فسمعا المؤذنين وهم يؤذنون لصلاة الظهر ، ويتبعون

أذانهم بدعوة ملتبهة إلى الثورة والجهاد، فدخلوا المسجد فإذا هو يدوي بمن فيه من الحشد العظيم، وقد ارتفعت أصوات الغضب، وبسرت الوجوه، وأخذ كل شخص يتكلم ويسمع في آن، وجلس إلى جانب القبلة الشيخ السادات، والمشايخ: يوسف المصيلحي، وإسماعيل البراوي، وعبد الوهاب الشبراوي، وسليمان الجوسقي، وأحمد الشرقاوي، وهم مساعير الثورة وموججوها. ثم وقف الشيخ يوسف المصيلحي، وكان ذرب اللسان ملتهب الوطنية قوى التأثير، فقال:

«يظن الفرنسيون أن مصر أفقرت من الرجال، وانحلت فيها العزائم وكنت الهمم، وأنها شعب من نساء لا يميز فيه الرجل من المرأة إلا عمامة ولحية، وأن أهلها قطع من الغنم نام عنه رعاته، وتركوه نهبا للذئاب. وهم يتندرون في مجالس مجونهم وعلى كؤوس شرابهم، بجبن المصرى وهلمه من السيف والمدفع، وأنه إذا رأى جندياً فرنسياً في الطريق أقمى له في ذلة وخنوع كما يقمى الكلب. فهل هذا صحيح؟».

فهزت أصوات جوانب المسجد صائحة في غيظ وغضب!

كلا. كلا.

- «نعم. كلا، وكذب ما يظنون، فإننى أرى في هذه الوجوه غضبة الأسود لعرينها، وحمية الشجاع الباسل لعرشه ودينه. أنتم أبناء الفاتحين، ولأجدادكم سجل من المجد والجهاد لا ينقصه إلا أن تنقشوا تحته أسماءكم بسلاحكم. فهلموا إلى المجد والشرف هلموا، هلموا إلى الجنة والشهادة هلموا. فلا نامت أعين الجبناء، ولا هدأت قلوب المعوقين والمنافقين! لقد طال بكم أمد الصبر فماذا بقى لكم أن تصبروا عليه؟ لقد ألزموكم حمل شارة الفرنسيين، وافتنوا في فرض الضرائب، وهدموا أبواب الحارات حتى لا يعوقهم عن الهجوم عليكم في ظلمة الليل عائق. هل نحن أمه محمدية؟ هل نحن أمة جعل الله الجهاد في مقدمة فروضها؟ أيها الشجعان البسلاء: ثوروا لكرامتكم، ثوروا لوطنكم، ثم ثوروا لتاريخكم! وهنا انفجرت حماسة محمود العسال ونفدت طاقته العصبية فصاح: كفى كفى بالله عليك يا مولانا، فلن ترى منا مصر بعد اليوم إلا رجالاً أرواحهم في أسنة رماحهم. ثم اتجه إلى الناس ونادى: هلموا معي إلى الجهاد. فرددت الجموع الزاخرة صوته: إلى الجهاد! إلى الجهاد! وتزاحموا إلى أبواب الجامع يتقدمهم محمود ووراءه

نيكلسون، وما كان يشك من رأى هذه الأمواج المتدفقة من الناس فى أن أيام الفرنسيين بمصر أصبحت تعدّ على أصابع اليدين .

اشتعلت الثورة بالقاهرة وتقدم محمود الثوار، فأخذوا سمتهم إلى مخافر الجنود الفرنسية فقبضوا عليهم ، وازدحمت بالناس شوارع الموسكى والغورية والنحاسين وغيرها، وجاء الجنرال «ديبوى» حاكم القاهرة ليصدّ الثوار مع طائفة من فرسانه، فأطبقوا عليه، وأصابه أحدهم بطعنة من رمحه فخرّ صريعاً مجذلاً، فزادت بذلك حميتهم، وتكاثر عددهم بمن انضم إليهم من أرباض القاهرة، واستولوا على المواقع الحصينة : كباب الفتوح، وباب النصر، والبرقية، وباب زويلة، وباب الشعرية، وأخذوا يحفرون الخنادق وينشئون الحصون، ويطلقون منها النار على الفرنسيين .

وأدرك الفرنسيون الخطر المحلق بهم، فجمعوا جموعهم وعزموا على استئصال الثورة بالحديد والنار . وقضى أهل القاهرة الليل فى تأهب وإصرار، وكان محمود يمرّ على من بالخنادق والمتارس حافظاً للعزائم، مثيراً للهمم، حتى إذا بزغت شمس اليوم الثانى كان الفرنسيون قد احتلوا جميع المرتفعات خارج المدينة، ونقلوا إليها مدافعهم وذخيرتهم، فأرسلوا منها القذائف متتالية مرهبة على نواحي الأزهر والصنادقية، والغورية والفحامين، حتى أوشك الأزهر أن يتداعى من شدة الضرب وأن يسقط على الجماهير الحاشدة به . وصارت الأحياء المجاورة صورة من الخراب والدمار، فتهدمت البيوت، وماتت تحت أنقاضها آلاف من السكان البائسين، وطال الهول واشتد، وبددت قذائف المدافع قوة العزائم، ويشتت الحماسة الوطنية من أن تقاوم جهنميات العلم الحديث، وعجز الإيمان الأعزل أن يقف أمام الطغيان المسلّح، فسُقِط فى أيدي المصريين ودارت عليهم الدائرة، واستشفعوا بالمشايخ عند نابليون أن يرفع عنهم سخطه وغضبه، ولكنه بعد أن أسكت عنهم أصوات المدافع أطلق جنوده تعيث فى القاهرة كما تشاء، وتحكم فى الناس كما تشاء . فدخلوا الأزهر بخيولهم وعبثوا بما فيه من كتب وخزائن .

إن نابليون كسب المعركة وقضى على الثورة، ولكنه قضى معها على كل أمل له فى اجتذاب المصريين، وعلى كل عاطفة تنبض بها قلوبهم .

وخرج محمود من الثورة كالسيف المحطّم : تحطم جسمه، وتحطمت روحه، وتحطمت آماله . فأسرع إلى بيت ابن عمه يائساً حزيناً، وانطلقت شياطين الجواسيس من

عقالها تقبض على كل من كان له ضلع فى الثورة، واعتنقت آلة الإعدام كل من حامت حوله شبهة ففضت عليه، وملّ الفرنسيون تكلفهم المودة للمصريين فصارحهم العداء ومشوا لهم الضراء، وعرف المصريون بعد هذه الكارثة أن الخطب والمؤامرات شىء، والسيف والمدفع شىء آخر.

وذهب نيكلسون إلى بيته يحمل لابنته لورا حوادث الثورة، وما رآه من جرأة محمود وبطولته، وقذفه بنفسه بين برائن الموت، ثم زفر وقال: لقد كان بطلاً حقاً، ولكن ماذا تفعل العصا أمام السيف الحسام؟

- لقد كنت أتوجس خيفة عليكما، وكلما سقطت القذائف من القلعة وقمم المقطم، كنت أدخل تحت السرير فأسجد وأصلى لكما. أهو بخير يا أبى؟  
- بخير وعافية، ولكن شعوره بالهزيمة يكاد يقضى عليه.

- هذه طبيعة الشرقيين، فمتى يعرفون أن الهزيمة دائماً أول حافز إلى الظفر؟ أتصدق يا أبى أنى مسرورة بنتائج هذه الثورة، إنها لم تنجح فى مرأى العين، ولكننى أعتقد أنها بلغت غاية النجاح، وأن الفرنسيين لن يتم لهم أمر بعدها فى مصر. لأنك إذا وضعت هذه الثورة إلى جانب تحطيم نلسون لأسطولهم، رأيتهم فى مصر كأنهم فى بيت يحترق، وقد حرموا كل وسائل النجاة.

وتوالت الأيام، وخرج محمود من مخبئه، وأكثر من زيارة نيكلسون، ورأى من لورا عطفاً سحرياً شفى مريض نفسه، وبعث فيها أملاً جديداً. فحديثها حلو، وخلقها كريم، ومعدنها ذهب نضار. ثم هو إذا رفع إليها عينيه رأى الجمال الهادىء المطمئن، الذى لم يحاول مرة أن يكون جميلاً فبز كل صنوف الجمال. كان يُنصت إليها فيسمع أدباً وحكمة، ويتعلم كثيراً عن الدنيا وأحوالها، والدول وسياساتها. وكانت تنظر إليه نظرة حنانة حالمة، فتلتقى بها نظرتة فيحسُّ بأريحية يكاد ينتفض لها جسمه. سمّه ميلاً، أو سمّه حباً أخوياً، أو سمّه ما شئت فإنه شىء لذيذ وكفى. أكثر محمود من زيارة لورا واصطحبها لزيارة زبيدة كثيراً، وكانت زبيدة تسرّ بلورا وتأنس بها، حتى لقد كانت تلزمها البقاء معها ببيت خالتها أياماً.

وفى صبيحة يوم قدم السيد على الحمامى من رشيد، وأخبر زبيدة بأن أمها فى شوق إليها، وأنها مريضة منذ حين، وأنها ألحّت عليه أن يسافر إلى القاهرة ليعود بها، فلم تجد

زبيدة بدأ من السفر، فنزلت فى سفينة إلى رشيد، فودّعها محمود العسال ولورا بين الزفرات والتنهيدات، ومال محمود على أذنها، فاجابته فى ضحكة متكلفة: لم يبق إلا القليل!

## - ٨ -

جلس مينو فى صدر إيوان بيته فى رشيد تحفّه تلك العظمة الحبيبة إلى نفسه، والآبة التى تميل إليها غرائزه، والجنود والديّبانات الفرنسية تحيط بأسوار الدار شاكى السلاح، فى أزهى ملابسهم وأروع ما به يظهرون، والخدم والأغوات يذهبون ويجيئون فى اهتمام وخشية، يدلان على جلالة شأو المخدم وشدة صرامته، واحتفاله بصغائر الأمور. جلس مينو فى صدر الإيوان جلسة الأمير المدلل، الذى يشعر أن الدنيا فى يده، والخلاق طوع أمره، والقضاء والقدر من جنده. وقد قوى عنده هذا الخيال ما كان يراه فى حاشيته من رؤوس خاضعة، وظهور منحنية، وتسليم وإعجاب بكل ما يقول، كأنه وحى من السماء. وكان فى مجلسه ذلك اليوم الجنرال «مارمون» و«دينون» الأديب الكاتب الفرنسى، و«دولوميو» الرسام، وهما من أعضاء لجنة العلوم والفنون، والطبيب «شوفور».

بدأ مينو الحديث فى شىء من التضجر والسأم عما يحيط برشيد من الثورات التى لا ينطفىء أوارها، ثم هزّ كتفيه وقال: عجيب أمر هذه الثورات، إنها مع حقارتها وهوان خطرها، تشغل منا وقتاً كان أولى بنا أن نصرّفه فى عظام الأمور.

فهزّ «مارمون» رأسه وقال: إننا نكاد نكون قد أخطأنا الطريق فى سياسة هؤلاء المصريين، وقد كان عدد الجنود الذين فتحنا بهم مصر يمكن أن يكفى، لو أن الطريق بيننا وبين فرنسا بقيت مفتوحة آمنة. أما الآن، فقد اضطررنا إلى تشتيت هذه القوة الصغيرة فى الصعيد لمحاربة مراد بك، ثم فى جميع أنحاء مصر السفلى، لأن الثورات لا تكاد تنقطع فيها، وبذلك تمزّق الجيش وقُتل من الجنود عدد عظيم. وهنا قال دينون:

- ومن العجيب أن يترك نابليون هذا الأتون الملهب بالثورة والعصيان، ويقتطع من هذا الجيش الضئيل ثلاثة عشر ألف جندي مع كبار قوادهم، ليذهب لغزو سورية! كان مصر قد استقرّ بها كل شىء، واستقام بها كل أمر. فنظر مينو إلى دينون نظرة المغضب وقال:

- أنت لا تعرف نابليون . إن سرّ عبقريته إنما هو فى تحدّى الأقدار والسخرية من الكوارث . إنه ليس رجلاً مثلك أيها الفنان الأديب . إن العقول تستطيع أن تبلل الأشياء فى مدى محدود ، أما أعمال العباقرة ففوق منال العقول . وهنا أطرق مارمون وقال :

- إن المقامر قد يلقى بما بقى له من مال ليكسب الدست ، فقال مينو :

- لا يا مارمون . إن المقامر ليست له بصيرة نابليون التى تكشف الغيب ، ثم إنكم تبالغون فى شأن هذه الثورات ، ولو كنت على رأس خمسمائة جندي لأطفأتها جميعاً ، ولكن هذه الدنيا تعطى السيف دائماً لصاحب المحراث ! ثم زفر وقال : عجيب ألا يختارنى نابليون وكيلاً له بالقاهرة بدل «دوجا» ولكن يظهر أن حماية الثغراهم وأعظم . فأجاب دولوميو :

- من غير شك .

ثم انصرف القوم عدا الطبيب شوفور ، وبقي مينو مطرقاً ، وطال إطراره . فقال شوفور :

- إن سيدى يكثر التفكير ويبدو عليه القلق ، وقد لاحظت منذ أيام أن صحته ليست على ما أحب له ، فرفع مينو رأسه وقال :

- إننى أعيش هنا يا شوفور عيشة الأسير ، وهذا الجو المحدود أضيق من أن يتسع لآمالى ، وكلما أطلت التفكير فى أمرى برّح بى الحزن واشتملنى عارض يشبه الخبال ، إننى خلقت للعظمة والمرح . أما العظمة : فقد لقيتها هنا فى صورة ضئيلة لا تكاد تتعدى حدود رشيد ، ولو أننى ملكت فرنسا كلها ما قنعت بها نفسى . وأما المرح : فقد تركت ورائى منه فى باريس ما لا يمكن أن يعود .

- لا بد للنفس الكبيرة والعقل الدائب المفكر من المرح واللهو . ولو لم يغسل عبث الليل ولهوه آلام كدح النهار وكده ، لتبذل العقل وقتله الإعياء .

- وأين منا السبيل إلى اللهو فى مدينة نصفها مساجد ، ولأهلها عيشة الرهبان . والراهبات فى الصوامع ؟

- السبيل الزواج يا مولاي .

- الزواج؟ وهل لرجل مثلى من أعرق الأسر الشريفة بفرنسا، أن يتزوج بفتاة إفريقية شوهاء، ليس لها قدم فى المجد. ولا لأبائها ذكر فى التاريخ؟

- أما الفتاة الإفريقية الشوهاء فلا وجود لها فى رشيد، إن بهذه الدور التى يمرّ بها مولائى فوق جواده، لآلىء بشرية لم تقذف بمثلها كنوز البحار. وإن فيها من الجمال النادر ما يعجز عن تحدّيه أفخم القصور بباريس وفلورنسا وروما. إن الحسن الرشيدى يا مولائى صورة فى هذه الأرض لجمال الجنة وما فيها من نعيم، وربّ فتاة ملقّفة مختبلة فى ملاءتها، لو أسفرت لفضحت جميع ما تخيله روفائيل من فنون الجمال. أنا طيب يا سيدى وتقتضى صناعتى أن أرى الوجوه، وقد رأيت من حسنهن هنا ما زهدنى فيما بالغ فيه الشعراء وأبدع فيه المثّالون. وأما الشرف: فإن فى رشيد منه ما فى فرنسا. إن الشرف هنا لا يكون بالانتماء إلى بطل، وإنما يكون باتصال النسب بالنبي الكريم، وهذا خير ضروب الشرف والنبل.

- فى رشيد من الأسر من ينتمى إلى النبي محمد؟

- كثير جداً لأن أهلها من قریش نزحوا إلى رشيد بعد فتح العرب بقليل، ولكننا نريد شيئين: الشرف، والجمال. وهذان لا يجتمعان فى رأى إلا فى أسرتين: أسرة الشيخ الجارم، وأسرة السيد محمد البواب، فاتجه إليه مينو فى شغف وقد أعجبه الحديث وقال: حدثنى عنهما يا شوفور حدثنى..

- أما رقية وآمنة بنتا الشيخ إبراهيم الجارم: فجمالهما فوق وصف الواصف. وأما زبيدة بنت السيد محمد البواب فإنها فى الحق ساحرة فاتنة.

فجحظت عينا مينو وقال: هذا بديع جداً، ولكن ماذا أفعل بخليلاتى اللاتى يخطهن العد بفرنسا وإيطاليا. إن أظافرهن لن تقنع بتمزيق جلدى!

- وأين هن منك اليوم وبينك وبينهن المهامه الفيح والبحار الخضراء؟ إن الفرنسيين سيؤسسون بمصر مملكة شرقية واسعة الأطراف، وسيكون لك فيها الشأن الأول والملك العظيم.

- هذا ما تحدثنى به نفسى، وإذا لا بد من الزواج، وبمن أتزوج؟ سأختار بنت الشيخ الجارم، لأنه فوق شرفه النبوى من أكبر علماء المدينة.

- غير أن في الأمر عقبة يجب أن تذلل، تلك أن الإسلام يحظر تزوج المسيحي بمسلمة.

- ألسنتُ مسلماً؟ ألم يشهدني أهل رشيد في مسجد المحلى وأنا أقوم وأقعد حتى كدت ألث من التعب في صلاة التراويح؟

- أظن أن هذا لا يكفي، فإن عقد الزواج في مثل هذه الحال يجب أن تسبقه وثيقة مسجلة بالإسلام، على أننا نستطيع أن نسأل مفتي المدينة في هذا الأمر.

فوثب مينو يصفق بيديه يدعو مملوكه الخاص «إينال» فلما مثل بين يديه، أمره أن يدعو إليه الشيخ أحمد الخضرى.

حضر الشيخ الخضرى بعد قليل، وهو خائف يرتعد لهذه الدعوة التى فاجأته فى جوف الليل، وأخذت شفتاه تتمتان بالأدعية وضروب الاستغاثة بالأنبياء والصالحين. فسلم على الجنرال، وجلس بعد أن جمع ثيابه وتكؤّر فى عباءته كأنه صوان ضخّم للثياب، وبعد أن هدأت نفسه قليلاً اتجه إليه مينو سائلاً:

- ما قول مولانا المفتى فى مسيحي أسلم، أيجوز أن يتزوج بمسلمة؟

- نعم يجوز شرعاً إذا ثبت إسلامه لدى مسجل العقود بالطرق الشرعية.

- وما الطرق الشرعية؟

الإقرار والبيّنة. وأقوم السبل أن يقنّم هذا الرجل إلى المسجل وثيقة شرعية بإسلامه.

- إننا فى فرنسا لا نتشدد هذا التشدد، فالناس أحرار فى عقائدهم وتصرفاتهم.

- إن الإسلام أيها الجنرال يدعو إلى الحرية، ولكنه يحيطها بسياج حتى لا يضرّ بعض الناس بعضاً بتصرفاتهم، والله جل شأنه يقول فى كتابه الكريم: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾.

- هذه حكمة يجب أن تكون أساساً لجميع القوانين. لقد ألدتنا كثيراً يا مولانا، وقد دعوتك لأن جدلاً قام بينى وبين شوفور فيما سألتك عنه. يا إينال مرّ بعض الجند أن يكون فى خدمة الشيخ حتى يصل إلى داره.

مضى بعد ذلك يومان قضاهما مينو في التفكير وتقليب وجوه الرأى ، وذهب فى أثنائهما الشيخ الخضرى إلى الشيخ إبراهيم الجارم ليقضى السهرة بداره على عادته ، وجاء ذكر الفرنسيين وأعاجيب أفعالهم ، كما كان يجىء فى كل ليلة ، فقال الشيخ الخضرى :

دعائى الجنرال ليلة أمس بعد أن ذهبت إلى فراشى ، فلما كنت عنده سألنى سؤالاً عجيباً ، فقال الشيخ الجارم :

- عن أى شىء سألك ؟

- سألنى عن صحة زواج المسيحى الذى أعلن إسلامه بمسلمة .

- ما شأنه بهذا ؟

- لا أدرى يا شيخ إبراهيم .

فأحسن الشيخ الجارم - وكان بعيد النظر نافذ البصيرة - أن وراء هذا السؤال داهية دهما ، توشك أن تسقط على المدينة ، ودفعته غريزة الحذر أن يكتف عن الشيخ اهتمامه فقال :

- إن هذا الرجل أخطأته عمامة الفلاسفة ، وقد خرف القدر فسماه جنرالاً ، ولعل اهتمامه بسؤالك عن الزواج وغيره خطرات من وسوسه التى لا يفقه منها .

وانقضت السهرة وودّع الشيخ ضيفه ، وجلس واجماً وقد حمل رأسه براحتيه ، وتواردت عليه الأفكار والهواجس ، وأخذ يحدث نفسه : هذا المينو يريد أن يتزوج ما فى ذلك من شك ، ثم هو يريد أن يتزوج بمسلمة ، وهذا بديهى أيضاً . وما شأنى أنا بهذا ؟ فليتزوج فلن أستطيع دفعه ! ولكنها مصيبة ستحلّ بأسرة فى رشيد ، وبأى الأسر تنزل ؟ بأكر الأسر وأرفعهن شأنًا ، لقد قرب الخطر منى ، وأخذت النار تمتد إلى ثيابى . إن لى بنتين فىا للكارثة ! كيف أدفع هذا العار عنى ، إن كلمة « لا » أصبحت فى عرف الفرنسيين لا تفيد النفى ، وإذا استطاع شجاع أن يقولها فلن تكون نهايته إلا الذل والدمار . إن هذا الجنرال سيظن أن زواجه بأكرم بنت فى المدينة تنزل منه وتواضع ، وشرف عظيم وتفضل واسع على من يصاهره . فالويل كل الويل لمن يردّ هذا الشرف المزعوم فى وجهه ، أو تبدو منه أية رغبة عن هذا الفضل العظيم ! أليس من مفرّ؟ أليس من حيلة ؟ ليتنى زوجتهما منذ حين ، وليثنى لم أدّد عنهما الخطاب كما يذود حارس البستان الطيور عن ثمره ! إننى واثق أن

إسلام الجنرال رياء ، ولو كان مسلماً حقاً ، وأخلاقه أخلاقه التي أعرفها ، ما رضيته زوجاً لأية فتاة تتصل بي من بعد أو من قرب . لا . لا . لا . إن هذا لن يكون . ثم رفع رأسه وبدأ في عينه بريق الظفر ، وهدأت نفسه هدوء من يهتدى إلى حل أمر عسير ، فنادى بخادمه وقال :

اذهب الآن مسرعاً وادع إلى الشيخ عثمان شبايك ، والشيخ حسيناً أبا السعود أتعرفهما؟ إنهما الطالبان اللذان يجيئان هنا في عصر كل يوم لتلقى الدروس . واذهب بعد أن تدعوهم إلى بيت الشيخ محمد غرا ، واطلب منه أن يعجل إليّ .

وأقبل الطالبان بعد قليل فحياهما الشيخ وقال : إنما دعوتكما في هذه الساعة لأعرض عليكما زواج بنتي ، فقد أدركني الهرم وخشيت إن أنا مت أن يزوجهما أخوهما من غير العلماء . وقد تعجبان من هذا العرض المفاجيء ، ولكن لو علمتما ما أحاط بي من الوسوس والهموم لزال عجبكما . فنظر الطالبان إليه في ذهول . وقال أولهما : هذا شرف كبير يا مولانا يطير اللب ويشير العجب ، وإنما نحن خادما لك اللذان يتنافسان في حمل نعليك ، فإذا تفضلت علينا بهذه الكرامة ، فليس لنا إلا أن نشعر بأن ما أصبناه من خير إنما هو بركة من بركاتك ، ونفحة من نفحاتك . ثم انقضاً على يديه لثماً وتقبيلاً . وهنا دخل الشيخ محمد غرا ، فطلب منه الشيخ أن يدون عقدي زواج ، لأنه زوج الشيخ شبايك برقية بنته ، والشيخ أبا السعود بأمنة . فانزعج الشيخ غرا وشرع يتلعثم ، ولكن الشيخ صوب إليه عينين غاضبتين ، فاستلّ قلمه وكتب .

وفي بكرة النهار أقبل أعوان مينو يتواثبون إلى دار الشيخ الجارم حتى ملثوا رحبتها ، وهم يتعجلونه إلى مقابلة الجنرال ، فخلل الشيخ لحيته بأصابعه - وقد كانت تلك عادته إذا أحسّ بظفر أو كتف شماته في عدو - ثم وجد نفسه وهو ينشد :

فأصبحتُ من ليلنى الغداة كقباض على الماء خائنه فروج الأصابع

وركب الشيخ بغلته وسار معهم هو يردد في همس خافت استغاثته التي أغرم بترديدها :

نحن	بالله	عزنا	والحبيب	المقرب
بهما	عز	نصرنا	لا بجاه	ومنصير

والذى رام ذلنا من قريب وأجنبى  
سيفُننا فيه قولنا حسبنا الله والنبى

حتى إذا كان بحضرة مينو فجأه الجنرال بمحاضرة طويلة الذبول عَدَد فيها أجداده الأبطال، وما كان لهم من أثر مجيد فى تاريخ فرنسا. وأطال فى إطراء شرف محتده ونبل أعراقه، والشيخ مطرق يخلل لحيته بأصابعه، ولسانه لا يفتر عن قراءة القرآن. ثم انتقل مينو إلى غايته فقال: وقد أردت ألا أضنّ على هذا البلد بما يصلنى بأهله، فعزمت على إعلان إسلامى والإصهار من أسرة شريفة، يتصل نسبها بالسلالة النبوية. وعلمت أن لك بنتين فلم أجد على من عار إذا تزوجت بكبراهما. إن الناس سيدهشون حقاً لهذه المصاهرة، ولكنهم لو علموا أن التواضع من أول صفات الجنرال مينو ما عجبوا. فرفع الشيخ رأسه وقال:

- هذا يا سيدى شرف عظيم. ولو كنت أعلم ذلك الحظ السعيد الذى ينتظرنى ما زوجت ابنتى بالأمس.

- هذا شىء يؤسف له فقد كنت أرضى أن تكون لى صهراً.

- ذلك تقدير العزيز العليم.

وهنا وقف مينو وفى وجهه دلائل الحقد والغضب، فوقف الشيخ وسلم وانصرف.

ولم يستقر مينو فى مجلسه حتى أرسل فى طلب السيد محمد البواب، والسيد على الحمامى، فلما دخلا عليه دهمهما بطلب الزواج بزييدة، فكاد البواب يصعق لهول ما ألقى عليه، وراعه الموقف وأصماه سهم القضاء. وأخذ الحمامى يسهب فيما سينالهم من الشرف والجاه بهذه المصاهرة، فأفاق البواب وقد سمع نفسه وهو يقول فى خوف وتلعثم: إنى كنت أتمنى أن أنال هذا الشرف لولا... ولكن الحمامى أسرع فقال فى صوت مرتفع حجب كل صوت: إننا يا سيدى الجنرال طوع أمرى، وإن نزولك إلى مصاهرتنا واختصاصنا بهذه الكرامة دون غيرنا، فضل دونك كل فضل، وكرامة ليس بعدها كرامة. وهنا هز مينو رأسه فى كبر وأنفة وقال: سيكون الزواج بعد أسبوع، فقال الحمامى: إنها الآن بالقاهرة، وسأسرع غداً إليها، وفى يوم حضورها يتم الزواج.

خرج الرجلان من دار مينو، فقال السيد محمد البواب للحمامى فى ذهول:

- لقد قتلتنى يا رجل وجلبت علىّ عار الأبد.
- إن هذا الزواج سيرفع من شأنك ويجعلك سيد المدينة.
- إنى لن أشتري سيادة الدنيا بهذه الوصمة.
- هوّن عليك يا عم ، فلن يضيرك أن تكون صهر أكبر جنرال فرنسى ، ولن تلبث حتى يتزاحم عليك وفود المهنيين من كل مكان.
- لن أبقى فى المدينة حتى أرى واحداً منهم !
- لن تبقى ؟!
- نعم .
- سألتك بالله أن تترىث يا عم ، فإن الوهم يلعب برأسك ، ويصور لك من حادث يتمناه الناس جميعاً فادحاً.
- لن أبقى برشيد لأرى الناس يراءوننى ، ولو كشف عنهم الغطاء لبدت قلوبهم وكلها زراية بى واحتقار وسخرية . ماذا تظننى يا رجل ؟
- إننى لن أعيش فى مدينة كل ما فيها ومن فيها يدكّرنى بأن ابنتى فى عصمة الفرنجى مقتصب .
- ولكنك ستقتل أُمى .
- إن الموت قد يكون أحياناً خيراً من الحياة .
- يا للمصيبة وماذا نعمل الآن .
- ما طبل الرجل إن استطعت ومنه الأمانى ، فلعل الله يعقب بعد عسر يسراً .
- لن أستطيع يا عمى . إننى إن فعلت فتك بنا جميعاً وصادر أموالنا ، فإنه إذا تملكه الغضب انقلب أسداً هصوراً .
- الله أقوى منه . سأرحل الآن حيث لا يعلم أحد مكانى ، وقد أعددت العدة للسفر قبل أن أذهب لمقابلة الرجل ، فلانى أوجست منه شراً . ثم انفلت هائماً نحو غرب المدينة ، فاكترى بغلاً سار به فى طريق الإسكندرية ، منطلقاً فى عجلة كأنه الصيد المدعور .

وسار الحمامى إلى أمه حزيناً، ولكنه ما زال بنفسه فى الطريق حتى مسح عنها الحزن، وصوّر لها ما يستقبله من الثروة والجاه ورفيع المنزلة فاطمأنت، ثم طغى عليه سيل من الأمانى والأحلام فسخر من عمه، وهزىء من تزمّته وتحرجه، واعتقد أنه رجل؛ لا يفهم الحياة ولا يهتبل الفرص. وما دام الزواج شرعياً فأى شيء فيه من العار الذى يتخيله الأغبياء المتحذلقون؟

دخل على أمه ضاحكاً مرحاً، وألقى إليها الخبر فى جذل وابتهاج، وأخذ يسهب فى وصف الجنرال وكرم أخلاقه وشدة تمسكه بدينه، وأن كرائم الأسر فى رشيد ستحسد اخته على هذا الشرف الباذخ، الذى طالما ترامت على اعتابه فلم تظفر منه بطائل.

- وهل قبل أبوها؟

- قبل مسروراً، وسافر ليعد لزبيدة جهازاً يليق بالجنرال.

- إننى لا أعرف ما يعرفه الرجال، ولكنى غير مسرورة لهذا الزواج، لأنه زواج غير عادى، ولا أظن أنه ينتهى بخير.

- دعى الأمر الله.

- آمنت بالله لا ربّ سواه.

وأسرع الحمامى إلى القاهرة فى غد يومه، واحتال لأخذ زبيدة، فادّعى أن أمها مريضة. ثم مضت أيام وصلت بعدها إلى رشيد، وكانت أمها مريضة حقاً، لأن غيبة زوجها أقلقّت بالها وأقصّت مضجعها، وجعلتها تظن الظنون. فدخلت عليها زبيدة فقبلتها باكية، وحين سألت عن أبيها أخبرتها بأنه -افر منذ حين، وسيعود قريباً. وحينما فجأها أخوها بخبر خطبتها تلقتة ذاهلة أول الأمر، وطاف بها خيال محمود وماله فى سويداء قلبها من حب مكين، ثم طاف بها خيال العرافة رابحة، وتنبهت فيها غرائز الطموح، وقضت الليل كله تحمل ميزاناً من الوهم، تضع مينو فى إحدى كفتيه ومحمود فى الأخرى، فمرة ترجح هذه، ومرة ترجح تلك، حتى كادت تصاب بالجنون. وكانت تثب من سريرها وتقول: هذه هى الموقعة الفاصلة فى حياتى، فأى الرجلين أختار؟ مينو ليس الآن ملك مصر ولكنه قد يكون، ومحمود أحب الناس إلى قلبى وأقربهم إلى نفسى. مينو إفرنجى يقولون: إنه أسلم، ولكنى لا أعرف أخلاقه وصفاته، وهو ليس من جنسى ولا من قبلى، ومحمود

ترب صباى وشقيقى روحى، وفيه صفات الأبطال وخلائق سكان السماء، ولكن ليس لديه ملك وليس لديه عرش، وليس لديه صولجان. مسكين يا محمود، لو كنت ملكاً ولكن مالى وللملك أسلك إليه طريقاً مظلمة موحشة مجهولة؟ أأتزوج بفرنسى لأكون ملكة؟ ومن يضمن لى هذا؟ إنه حاكم رشيد، والثورات تحيط بالفرنسيين من كل مكان، فماذا يكون الأمر إذا جاء الترك وطردوهم، وبقي هذا الفرنسى المسمى مينو معلقاً برقبتي؟ تلك هى الطامة الكبرى، والكارثة العظمى، وهنا يصدق قول خالتي أمينة بأننى أزهد فى الشجرة الدانية لأتعلق بالأشواك. ثم أين أبى؟ أليس فى أكبر الظن أنه فرّ من ذلك العار الذى لطخته به يد القدر العاتية؟ لا. لن أتزوج بهذا الفرنسى ولو انطبقت السماء على الأرض. ولكن من يدري فقد يكون هذا الرجل مطيئى إلى ما أريد؟ إن العرافة لم تكذب قط، فلم تكذب فى أمرى وجدى؟ إن الفرنسيين سيقون بمصر، وإن مينو سيكون حاكم مصر. وهكذا ظلت زبيدة تخطط وتهذى حتى بزغ النهار، وحينما ملأت الشمس الأفق غصت دار البواب بالزوار. وكان بينهم الحاج حسين الميقاتى، والسيد على الحمامى، والسيد أحمد النقران، والسيد إبراهيم النقران، فطلبوا من زبيدة توكيل الحاج حسين فى تزويجها بمينو، فوكلته أمام الشهود فى تردد ووجل. وكان مينو أشهد على إسلامه قبل ذلك أمام القاضى الشرعى، وسمى نفسه عبدالله جاك مينو، واختار أن يكون الحاج أحمد شهاب وكيله فى الزواج، فاجتمع الوكيلان والشهود والمفتشون بالمحكمة فى اليوم الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف، وعُقد لعبدالله مينو على زبيدة، ولا تزال وثيقة هذا الزواج فى محفوظات محكمة رشيد الشرعية إلى اليوم.

وزلت المسكينة الطموح إلى مينو بعد أسبوع، فقدفت بسفينة حياتها فى خضم قائم مضطرب الأمواج، لا يهديها فيه إلا شعاع من أمل متقطع كاذب، ولو نفذ إلى سمعها صوت من بين هذه الأمواج الصاخبة حولها، لسمعت تهقها القدر وهى تجلجل فى شماعة وسخرية.

## - ٩ -

بقى محمود العسال ونيكلسون بالقاهرة يترقبان الحوادث ويتصلان بجماعات الثوار، ويتكران الوسائل للانتفاض على الفرنسيين وزعزعة حكمهم فى مصر، وذهب

محمود ذات صباح إلى متجره بخان الخليلي الذي يشرف عليه ابن عمه، وبعد أن جلس قليلاً رأى آثار الحزن والوجوم بادية في وجه ابن عمه فحاول أن يتغافل عما بدا له لأن عبوس الوجوه وانقباضها ليس بالشيء الغريب في هذا الزمن الغريب، ولكن حسيناً زاد ارتباكاً وانصرافه إلى الأمور التافهة وتجنبه النظر في وجه محمود، فابتدره قائلاً: هل من جديد يا حسين؟

- فتلعثم الفتى وحاول أن يتسم فلم يستطع، ثم نظر في وجه محمود نظيرة حزن وإشفاق وقال:

- إن سعداً الشباسي المراكبي جاء اليوم من رشيد.

- وماذا في هذا؟ أماتت أمي؟

- لا قدر الله. إنه يقول إن سيدتي زينب بخير.

- هذا شيء يسر، فلم أراك عابساً حزيناً؟

- إن ما قصّ على من أعمال الفرنسيين برشيد أثار أحزاني.

- هذا شيء لا يقابل بالحزن، وإنما يقابل بالجهاد وجمع الكلمة وتوحيد الرأي.

- أخشى ألا نستطيع جمع الكلمة إلا بعد فوات الأوان، وبعد أن تداس كل كرامة، فإن قلبي ليتفتت حينما أرى النساء المتبدلات، وقد مزّقن حجابهن وركبن الحمير مع جنود الفرنسيين يذهبن معهم كل مذهب، ويجلسن معهم في القهوات دون نكير من أزواجهن أو آبائهن، وإن الحسرة لتمزق فؤادي حينما أرى بعض الناس الذين تأبى الإنسانية أن ينسبوا إليها يساعدون الفرنسيين ويتملقونهم ويللون لهم السبل.

- إنهم ليسوا بأكثر ملقاً واستخذاء من العلماء أعضاء مجلس الديوان الذين يحملهم الفرنسيون كل يوم على كتابة منشور مملوء بالآيات القرآنية لتأييد حكم الغاصب ودعوة الناس إلى طاعته. آه يا حسين، إن مصر كانت مريضة بأهلها، فلما جاء الفاتح لم يجد بها متاعاً تصدّ الداء الوبيل الذي رماها به، وماذا برشيد من أفانين مينو؟

- علمت أن نزعتة الجديدة أن يزجّ بنفسه في الأسر الكريمة.

- كيف؟ يكثر من زياراتها؟

- يكثر من زياراتها أو يصهر فيها .

- يا للكارثة ! يتزوج بمسلمة شريفة ؟ إن دون هذا وتسيل الدماء ! من يقبل أن يزوجه ابنته ؟

- ليست المسألة مسألة قبول . إنما هي إلزام وقهر ، ومن يستطيع أن يقف في وجهه ؟  
- أتزوج فعلاً ؟

- نعم .

- بمن ؟

فتنهّد حسين وغلبه دمعه وقال : بريدة .

فوجم محمود وذهل ، وألقى برأسه بين راحتيه ، وترك عينيه شاخصتين كأنهما عينا المحتضر وقد جمد الدمع فيهما ، وتملكه حزن وغضب حبسا لسانه عن الكلام والأنين .  
بقي أكثر من نصف ساعة على هذه الحال ، ثم هبّ واقفاً وقال :

- ما أصابكم من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب . ثم قال : كنت أحارب الفرنسيين للوطن ، واليوم أحاربهم للوطن والشرف والانتقام . ثم انطلق مطرق الرأس كمن به جنة ، ولزم داره أياماً ليبت حزنه لنفسه ، ويرسل الدمع مدراراً دون أن يخاف رقيباً أو مليماً .

غاب محمود ولم يزر نيكلسون أياماً ، فقلقت لورا ولعبت بظنونها الأوهام ، فقالت في هيئة من عرض له أمر غير خطير غير أنه يريد أن يتحدث ، وكانت تملأ فنجانة القهوة لأبيها :

- هل سافر محمود إلى رشيد ؟

- ما أظن يا بنيّتي ، فإنه لو عزم على السفر لأخبرني . إنني لم أره منذ أربعة أيام وقد شغلني عنه انصرافي إلى استهواء ذلك الضابط الفرنسي حتى أصبحت جميع أخبار القيادة العليا ملك يميني ، وفي متناول كفي .

- عجيب أن يوح ضابط بهذه الأسرار . كيف استملته يا أبي ؟

- الجنود يا لورا ساخطون على البقاء في هذه الديار ، وبخاصة بعد أن هددهم

الثورات وحوادث الاغتيال . وهم يعتقدون أن قدومهم إلى مصر لم يكن إلا لإشباع نزوة نابليون المولع بأن يجعل اسمهم دائماً بين الطبول والزمور، ولو أورد جنوده موارد التلّف . ثم إنه ضللهم ودفعهم إلى الاعتقاد بأنهم سيجدون في مصر باريساً أخرى، فلم يجدوا من ذلك شيئاً .

عرفت هذا الضابط أول ما عرفته بحانة للإفرنج بحارة الرويعي، فرأيت فيه فتى وسيم الطلعة، يدلّ حديثه وملامحه على أنه من الطبقة المتوسطة بفرنسا، وعلمت من خادم الحانة أنه مرافق «ياور» الجنرال دوجا الذي قام مقام نابليون بعد سفره إلى سورية . رأيته جالساً وقد نخيم على وجهه الحزن والسأم، فبدأت الحديث في الجوّ، وكان لي بالفرنسية إلمام حسن فأطلقت سراح كلماتها لتشمّ الهواء وتمتّع بنعمة الظهور، فابتسم نحوي في وداعة وثأفف وقال :

- إن جو مصر خدّاع كنسائها، فإنه يصفو لك يوماً ليزيقك عذاب الجحيم أياماً وشهوراً . آه يا شيخ ! لو ذقت حرارة الجوّ حينما قدمنا مصر واخترقنا هذه الصحراء الملعونة بين الإسكندرية ودمنهوور . عند ذلك قريت من خوانه، ومددت يدي إلى كرسيّ فجلست بجانبه، ودعوت الخادم أن يأتي بكوبين من الجعة . وطال بيننا الحديث في جمال باريس وجمال نسائها، وقبح القاهرة وقدارتها وانتشار الأمراض بها، وجذبها من مسارح اللهو والتسلية، وبغض سكانها للفرنسيين . وقد أعلمته في غضون الحديث أنني مغربيّ وأنّي مولع بالفرنسيين أحب فيهم الشهامة والشرف وخفة الروح، وأعتقد أن ثورتهم التي قاموا بها في بلادهم للحرية والإخاء والمساواة ستخلّد أمتهم على الدهر، وستبقى مثلاً عالياً في العالمين . فقبض على يدي وهزّها في جذل ونشوة، واقتنصت الفرصة وأخرجت خاتمي الثمين من إصبعي، وقلت : هذا يا سيدي . . . فعاجلني وقال : ألبير . ألبير . فقلت : هذا يا سيدي ألبير سيكون رابطة الصداقة والمحبة بينك وبين صديقك السوسي . فالتقطته ألبير مبتهجاً وأخذ ينظر إليه دهشاً وقال : هذا لي ؟ قلت : نعم يا صديقي، ولي من الثروة ما لا يعدّ هذا بجانبه شيئاً . ثم قمت بعد أن واعدني على أن نلتقي عصر كل يوم بالحانة .

- وهل أخبرك بشيء يا ألبير ؟

- أخبرني أنه بعد أن سافر نابليون إلى سورية ظهر التمرد والانقراض في أكثر بلاد مصر السفلى، لكثرة ما دهم الناس من عبث الجنود ومصادرتهم لماشيئهم وحاصلاتهم،

فشبت الثورة بالشرقية، وانضم خلق كثير تحت لواء مصطفى بك أمير الحج الذي خرج على الفرنسيين، ثم سرت نيران العصيان متأججة مخيفة إلى ميت غمر، والبلاد التي حولها، ثم اشتد الهياج في منطقة رشيد، وظهر بالبحيرة رجل ادعى المهدية ودعا الناس إلى الجهاد، وانضم إليه رجال القبائل وغيرهم، وقد هزم الفرنسيين مرات حتى تكاثروا عليه آخر الأمر فقتلوه. وكان الفرنسيون إذا تغلبوا على مدينة فتكوا بمن فيها ودمروها.

- هذا منطق مقلوب يا أبى. إن قلوب الأمم لا تملك بالقسر والقسوة.

- إن هؤلاء القوم يظنون يا فتاتى أن السيف هو قانون أمم الشرق، ولم يعلموا أن هذه الأمم هي التي علمت أوروبا في القرون الوسطى قوانين سياسة الأمم، وأرسلت إليها شعاعاً وثأجاً من المدنية والعلم، لا يزال ينير لها الطريق إلى اليوم. وبينما هما يتجادبان الحديث إذا طرق خفيف على الباب، فقام نيكلسون يفتحته فرأى محموداً العسال فلم يملك إلا أن يعانقه مرحباً، ثم صاح: لورا! ها هو ذا محمود العسال الذي أقلق بالنا بغيابه طول هذه المدة، فأسرعت لورا فرحة بلقاء محمود، ومدت إليه يديها في حب أخوى صادق، وقالت:

- لا يا محمود... إن مثلثنا المتماسك إذا غابت منه ضلع عاد خطأً منكسراً! ثم قالت في مرح لطيف: وإهمالك زيارتنا ذنب لا يغتفر، فلا بد أن تؤدي لنا حساباً دقيقاً عما كنت تفعل في هذه الأيام. حيّاها محمود تحية ملؤها الشكر، وجلس واجماً ينكت الأرض بعصاه، وهنا قال نيكلسون: مالى أراك اليوم منقبض الأسارير يا محمود؟

- لخبر هائل وصل إلى من رشيد منذ أيام. ثم طفرت دمعتان من عينيه لم يستطع لهما حبساً، وأخذ يصل الحديث فقال في تمتمة المدهول: علمت أن الجنرال مينوتزوج بزبيدة. سمعت لورا الخبر فدارت بها الغرفة كأنما رُكبت فوق محور، وماجت بنفسها إحساسات عنيفة مبهمة. وعجيب شأن هذه الإحساسات، فإنها تهجم عليك كتلة مجتمعة، ثم تنحل إلى عناصر منفردة تترجمها النفس في سرعة البرق. سمعت لورا الخبر فأحست بشيء من الفرح يمتزج بالحزن الأليم. تزوجت زبيدة حبيبة محمود فأصبح خالصاً لها، لا يزاحمها في حبه شريك. والأثرة أول صفات الحب، لأنه دائماً غيور حذر. إذا يش محمود من زبيدة تفتحت أمامه السبيل إلى حب آخر، وقد رأت منه في الأشهر القليلة الماضية ميلاً كاد يكون حباً، وحناناً جاوز حد الحنان، وقرأت في نظراته ما لا تستطيع.

ترجمته إلا النساء ، ولحظت أنه يكثر من الزيارات ويصغى فى شغف إلى حاديثها . نعم إنها جدوة صغيرة خامدة تحت الرماد ولكن لا يصعب عليها إشعالها . تمرّ هذه الصور سريعة خاطفة بذهن لورا فترسّ وتبتهج ، ولكن صوراً أخرى فى سرعتها ومضائها تدهمها قوية جيّاشة فتبتس وتحنن . إن محموداً فى ألم شديد فكيف ترسّ وحبيبتها يتألم ؟ إن بطلها قد خاب أمله ، وعشت بعواطفه فتاة كانت تغذّى حبه بوعود خلافة كاذبة . وإلا فلماذا لم تتزوجه ، وهو زينة الفتيان وفخر أبناء الزمان ؟ ولكن من يدري ؟ فقد تكون زبيدة المسكينة قد رُميت بهذه الداهية على الرغم منها ، وقد يكون أهلها قد غلبوا على أمرهم فزوجوها بهذا الفرنسىّ مكرهين ، وهنا يجب أن تحزن لزبيدة أيضاً ، فهى صديقتها وأختها ، وقد كانت تحب محموداً حبّاً جمّاً ، فيا لنكبة العاشقين ! ويا لمصيبة الحبيين ! لا لا . إنها لا تفرح لمصائب الآخرين ، فكيف بنكبات أصدقائها المخلصين ؟ هكذا كانت الأفكار تتراحم على لورا . وهكذا كانت عواصف الوجدان تطوّح بها من ناحية إلى أخرى . لذلك اتجهت إلى محمود وقالت : إنها لكارثة حقّاً ، مسكين يا محمود ! ولكن الرجال لا يكون ، ومثلك من يحمل الأرزاء فخوراً باحتمالها وقال نيكلسون وقد برّح به الهم : عجيب أن يصهر الفرنسيون من المصريين ، وخناجرهم فى جنوبهم . ولكننى أعتقد أن زبيدة أرغمت على هذا الزواج إرغاماً ، وأنه لم يعقده قاضى المدينة إلا بعد أن عقده السيف والمدفع . هوّن عليك يا بنى فإن هذه المصيبة سيمحوها ما هو أشدّ منها ما دمت فى هذا الزمن الأغبر . ارفع رأسك يا بنى وكن رجلاً . فقال محمود : نعم سأكون رجلاً ، وسأعمل بوصاتك ووصاة لورا ، وسأثور على الفرنسيين لوطنى وشرفى . هلم يا نيكلسون فقد علمت أن نابليون سيعود اليوم من الشام وقد أقاموا له الزينات وأعدوا الطبول والزمور ، واعتقادي أنه هزم شرهزيمة على الرغم من منشورات الديوان ، ومن تلك الرايات التى رفعوها على مآذن الأزهر ، ومن كل ما يذيعه أبواق الفرنسيين . هلم معنا يا لورا فإن النظر إليك ينسينا ما نحن فيه من هموم . فارتدت لورا حبرتها وغطت وجهها بنقابها ، واتجه ثلاثتهم إلى باب النصر ينتظرون قدوم الفاتح العظيم ، حتى إذا وقفوا هناك مع الجماهير المتراخمة ورأوا فرسان الجند يدهبون ويجيشون فى تيه وعظمة ، قال أحد القاهريين لمجاوره : أما والله لولا هذه البنادق التى يتسلحون بها ، وتلك المدافع التى نصبونها فوق القلاع لقضينا عليهم فى ساعة من نهار . فأجابه صاحبه حزيناً : آه يا أخى لقد ضيعنا الممالك وفرّوا ، إنهم لم يعملوا منا أمة ، ولم يحصّنونا من عدوان الأمم . ثم مرّ عليهم جماعات من عظماء المدينة

يركبون البغال المظلمة ، فسألت لورا محموداً عنهم ، فقال :

أما هذا يا لورا فهو الشيخ عبدالله الشرقاوى رئيس الديوان الخصوصى شيخ العلماء ، وهو رجل أذله حب المال والجاه ، فتعلق بأذيال الفرنسيين لا يهमे أخربت البلاد أم عمرت ، وهذا هو الشيخ محمد المهدي وهو داهية واسع الحيلة ، يقتنص العصفور من بين برائن النسور ، ويختطف الزبد من فم الثعلب ، يتملق الفرنسيين ليجتلب رضاهم ، ويصانع المصريين بالدفاع عنهم ، والسعى فى تخفيف ويلاتهم . أما هذا الشيخ الأسمر النحيل الجسد فهو رجل عظيم يا لورا ، إنه الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ الكبير ، علمت أنه يدون الحوادث كل ليلة قبل أن يذهب إلى فراشه ، وله حكم دقيق عادل على الوقائع والأشخاص . ولو علم الفرنسيون بتاريخه لأحرقوه مع هذا التاريخ . وهذا الشيخ الضئيل هو الشيخ خليل البكرى نقيب الأشراف . أما الشيخ الوقور الراكب إلى يمينه فهو السيد محمد السادات وهو رجل خطير الشأن ، يبغض الفرنسيين ويبغضونه ، وقد يُرجى أن تكون له يد فى إنقاذ مصر ، وهذا الذى تريه منحنيّاً على قربوس بغلته ، وقد وُشيت جبهته بالذهب ، هو المعلم جرجس الجوهري القبطى كبير المباشرين والكتبة ؛ وله فى هذه الدولة نفوذ عظيم . وانظري يا لورا إلى هذا العتل الزنيم الراكب وراءه ، إنه برثلمى الرومى ، وهو نكبة مصر فى لأوائها ، كان من أسافل جند المماليك فعينه الفرنسيون وكيلاً لحاكم القاهرة فطغى أشد الطغيان ، وأصبح صورة بشعة للقسوة والنهب وسفك الدماء والتجسس على الناس . ثم مرّ فى الطريق السيد أحمد المحروقى والسيد أحمد محرم والشيخ الصاوى وغيرهم من الكبراء والأعيان فكان محمود يعرف كلا منهم للورا بكلمة موجزة .

ودخل نابليون فى عظمتة وجلاله من باب النصر يتبعه الجيش ، فاخترق شوارع الجمالية وبين القصرين والموسكى ، حتى وصل إلى ميدان الأزبكية بين قصف المدافع ودق الطبول . وكان سير الموكب بطيئاً ، فاجتاز هذه المسافة فى خمس ساعات .

ولما انفرد محمود بنيكلسون ولورا قال : أشهد أن نابليون هُزم فى هذه الموقعة وعاد مدحوراً ، أرايتما كيف كانت عيناه تنطبقان أحياناً لكيلا تؤلمه رؤية هذا الاحتفال الكاذب ؟ أرايتما جيشه خلفه وهو يكاد يسقط من الإعياء ؟ إنى أقسم أنه فقد نصف عدده . أرايتما هذا النفر الضئيل الذى يسميه أسرى ؟ هؤلاء يا لورا من باعة الصابون الفلسطينيين الذين

يتجرون في مصر، وفي ظني أنه ظفر بهم وهم قادمون فزّين له عُجبه أن يتخذهم أسرى .  
فقلت لورا: أعتقد أن المبالغة في الاحتفاء به وحدها هي أوضح دليل على خذلانه . وقال  
نيكلسون . صدقت أيتها الفيلسوفة الصغيرة، ولكنني أقول إن عودته وحدها من سورية  
برهان نكته، لأن نابليون كان يرجّى بعد فتح عكا أن يزحف إلى دمشق وحلب، وأن يصل  
منهما إلى الأناضول فيحتل إستانبول ويقوّض أركان الدولة العثمانية، ثم يمضى بجيوشه  
نحو النمسا ويصل منها إلى باريس ظافراً منصوراً بعد أن امتلك الشرق والغرب، فعودته  
بعد أن طاحت هذه الآمال خيبة ليس وراءها خيبة . على أننا سنسمع الخبر اليقين من ألبير  
غداً، فقال محمود: ومن ألبير هذا؟

- ضابط فرنسي ساخط على بقاء الفرنسيين بمصر .

وكانوا بلغوا منزل نيكلسون فودّعهم محمود وانصرف .

قضت لورا ليلتها في أحلام مضطربة، فمرة ترى زبيدة غارقة في نهر ومحمود يحاول  
إنقاذها فيحول بينهما تيار جارف شديد . ومرة ترى محموداً وهو متعلق بفرع شجرة عالية،  
وقد كَلَّت ذراعاه وأشرف على الهلاك، فتسرع إليه بسلم عال فينحدر به إلى الأرض .  
وهكذا كانت كلما خرجت من حلم دخلت في غيره حتى أشرق النهار .

وقضى نيكلسون اليوم في رسم خريطة للقاهرة تبين شوارعها ودروبها وأشهر  
معالمها، حتى إذا جاء وقت العصر غادر داره متجهاً نحو دكان محمود، فرآه جالساً قلقاً  
ينتظره . فساراً معاً حتى بلغا الحانة ورأى نيكلسون ألبير جالساً في إحدى زواياها، وهو  
يذود الذباب عن وجهه ضجراً مغتاضاً، وقد تواشب عليه من كل ناحية . فلما رآه ألبير  
صاح مبتهجاً: أدركني يا صاحبي المغربي ! فإنه يظهر لي أن ذباب مصر ملتهب الوطنية،  
وأنه حينما رأى أن المصريين لم يستطيعوا إخراجنا من مصر، أراد أن يقوم بالأمر عنهم،  
واعتقادي أنه سيفوز بالتغلب علينا وقذفنا في البحر . فابتسم نيكلسون وقال:

- إن الذباب يسقط على ما يحب لا على ما يكره .

- إنه حب من النوع القاتل، فقد نكب هذا الحب جنودنا بالرمد المصري والزُّحار  
وأنواع لا تكاد تحصي من الحميات القاتلة .

- الشاعر العربي يقول:

## ولا بد دون الشهد من إبر النحل

والشهد هنا هو النيل ، فمن أراد أن يمتلكه ويتمتع بعذب مائه فليصبر على ما بشاطئيه من حشرات وأمراض . ثم التفت إلى محمود وقال : هذا ابن أختي ، فنظر إليه ألبير مبتسماً وقال : ولكنه يتزياً بزي المصريين .

- لأنه يريد مجاملتهم لتروج تجارته بينهم ، أوصلت إليك السجّادات العجمية ؟

- أنت لم تمهلني لشكرك ، وهذا الذباب قد علّمني سوء الأدب فلم أسارع منذ رأيته إلى إظهار ما يملأ نفسي إعجاباً بك وبهديتك الغالية . حقاً إنها سجّادات يزدهى بمثلها قصر الشاه بإيران .

- هذا شيء قليل يا صديقي . أشهدت الاحتفال بمقدم نابليون بالأمس ؟ لقد كان غاية في العظمة وجلالة الملك .

- نعم لقد كان احتفالاً فخماً ، ولم ندخر وسعاً في أن يكون صورة لقوة فرنسا وضخامة سلطانها .

- ولكنني كنت أحب أن يصل نابليون إلى أبعد من عكا .

- فابتسم ألبير ابتسامة فاترة حزينة وقال : هذا ما كان يتمناه نابليون ويتمناه كل فرنسي معتقل في أرض مصر ، فإنه بعد أن سدّ علينا طريق البحر بتدمير أسطولنا حاول قائدنا أن يسخر من العقبات ، وأن يشقّ لنا طريقاً بريّة تصلنا بفرنسا ، فوقف القدر في وجهه فلم يجد إلا أن يعود أدراجه إلى مصر .

- إنها محاولة جريئة ، لن يقوم بها إلا نابليون العبقريّ .

- ولكن الثمن كان غالياً جداً ، والنكبة فادحة جداً . ولمح نيكلسون غلام الحانة فأمره بإحضار كأس من الخمر ، وفنجانين من القهوة ثم قال : إنهم يقولون إن نابليون عاد منتصراً ، ولكن ألبير مطّ شفته السفلى في غيظ وأسف ، وقال : إن للسياسة يا صديقي لغة لا يفهمها الناس . وحضر الغلام فاحتسى ألبير كأسه دفعة واحدة ، وأمر له نيكلسون بأخرى . وهنا مال ألبير نحوه برأسه وقال هامساً : لقد أصبحت لي يا سوسى أخاً وحبیباً ، ولقد رأيت فيك ميلاً للفرنسيين وحباً خالصاً لهم ، وليس من حرج أن أكشف لك خبيثة كل أمر . لقد

اطلعت بالأمس على رسالة طويلة كان بعث بها الجنرال «رينيه» إلى دوجا منذ أسبوع يصف فيها هذه الحملة وصفاً دقيقاً فيقول: إنهم تغلبوا على الجيش العثماني في العريش، ثم ملكوا خان يونس وغزة والرملة واللد، واستولوا على يافا بعد حصار شديد ومعركة عنيفة، وإن الجنود ارتكبوا في يافا من القتل والنهب ما تقشعر له الأبدان، وفي هذه المدينة انتشر بين الجند وباء ماحق كاد يقضى عليهم جميعاً، وفيها أمر نابليون بإعدام ثلاثة آلاف من الجنود العثمانية دفعة واحدة بعد أن ألقوا السلاح، وبعد أن تعهد لهم بعض ضباطه بسلامة أرواحهم إذا سلموا. ثم استأنف الجيش سيره فاحتل حيفا، ثم اتجه نحو عكا وهي مدينة محصنة بها جيش قوى من العثمانيين يقوده أحمد باشا الجزار، وهو قائد شديد المراس قاس، ذكى الفؤاد، خبير بشئون الحرب. وأخذ نابليون يحاصر عكا من اليوم التاسع عشر من مارس سنة ١٨٩٩ م إلى اليوم الحادي والعشرين من مايو ف ضرب أسوارها ومعقلها، واشتعلت المعارك بينه وبين الجزار طاحنة شديدة الأوار. ولما طال الحصار وضعف جند نابليون وعظمت خسائره، ارتد عنها بالبقية الباقية من جيشه. وزاد في قوة عكا أن الأسطول الإنجليزي بقيادة سدنى اسمث كان يظاهر جيش الجزار ويحول دون وصول السفن الفرنسية بالدخائر إلى الشاطئ، وقد أسر منها سبعا كانت قادمة من مصر تحمل مدافع الحصار وكثيراً من الذخيرة، فضمها إلى أسطولها. وهكذا عاد نابليون إلى مصر حزينا يائساً بعد أن فقد خيرة رجاله، وبعد أن اضطر أن يترك بيافاً جنوده الذين أصيبوا بالطاعون فريسة في أيدي أعدائه، وأن يتخلى عن كثير من مدافعه وذخائره في الطريق لوعورته وضعف جنوده عن جرّها، وقد طغى عليه الغضب فأحرق القرى بين يافا وغزة. هذه يا صديقي حملة سورية التي كنا نريد أن نجعل منها باباً خلفياً إلى أوروبا.

- لقد أحزنتني يا البير، إنها حقاً لكارثة جانحة تشبه كارثة الأسطول الذي دمره نلسون، ولكن نابليون رجل خلّاق للفرص يتخذ دائماً من خذلانه ذريعة لفوزه وإنتصاره، وسنسمع عنه بعد حين ما ينسينا نكبة سوريا.

- إنه يحارب في غير ميدانه يا صديقي، ويحاول اغتصاب بيت بعيد عنه، وهو غافل عن بيته الذي كادت تلتهمه النيران، ويضيع جهوده في صحراء قاحلة بينما يترك جنات أوروبا. يتوآب عليها الأعداء! هل يعرف الآن ماذا يحصل في أوروبا أو في فرنسا من الحوادث الجسام بعد أن انقطعت عنه أخبارها شهوراً؟ أنا قد أكون رجلاً غيباً، ولكني مع غباوتي هذه أستطيع أن أفهم البديهيّات التي لا يدركها سادتنا الأذكاء النابليون.

وطال المجلس فوقف نيكلسون ومحمود وودّعا صاحبهما وانصرفا . وأجمل نيكلسون لمحمود ما حدثه به ألبير فاغتبط وقال : هذه ضربة قاصمة ستليها بحول الله ضربات . فقال نيكلسون : أغلب ظنى أن نابليون لن يستطيع البقاء فى مصر طويلاً بعد هذه النازلة ، وعلى المصريين أن يهتبلوا الفرصة ويثبوا على الأسد وهو يلحق جراحه .

مضت أيام والمصريون فى ثورة نفسية عنيفة يكتمها الحذر بعد أن شاعت الأخبار بينهم بهزيمة نابليون سورية وارتداده عن حصون عكا ، ثم ملأت الإشاعات جو القاهرة بنزول الجنود العثمانية بأبى قير . وأحسّ نابليون بالحرج وأدرك ما فى الموقف من خطر ، وبخاصة بعد أن علم أن أسطول سدنى اسمث يرافق العمارة العثمانية . فأرسل أوامره إلى قواده ووئب بجيشه على العثمانيين واشتد الصراع وطال أمده ، حتى انتهى بهزيمة الأتراك والاستيلاء على مدافعهم وذخائرهم .

ما كاد محمود يتنفس الصُّعداء ويستبشر بقدوم العثمانيين ، حتى دهمه الخبر بهزيمتهم فلزم داره أياماً ، وحين برّحت به آلام الوحدة ذهب إلى نيكلسون بداره يشكو إليه بئّه وحزنه . ولكن نيكلسون لاقاه ضاحكاً مستبشراً وقال : قربت النهاية يا بنى فلا تبتس . ثم أخرج من صندوق أمامه جريدة إنجليزية وقال : بودى لو كنت تستطيع قراءة هذه الجريدة يا محمود . قابلت بالأمس ألبير وبعد أن تحدثنا طويلاً ، وهممت بالانصراف 'أدخل يده فى جيب معطفه وأعطانى هذه الجريدة وقال : اقرأ هذه يا صديقى تعلم أن كل ما تخيلته منذ أيام كان صحيحاً . فسألته من أين له بهذه الجريدة فقال :

- إن سدنى اسمث قائد الأسطول الإنجليزي - وهو من نوابغ الإنجليز وكبار عباقرتهم - اغتنم فرصة ذهاب ضابطين بعث بهما إليه نابليون للتحدث فى تبادل الأسرى ، فأحسن لقاءهما ، وزودهما ببعض الصحف الإنجليزية التى كان منها هذه الجريدة . وما كان يريد سدنى اسمث بهذه الهدية الغالية إلا أن يطلع نابليون على ما أصاب أوروبا من الاضطراب وما دهيت به جيوش الفرنسيين فى إيطاليا من الهزائم ، وأن البنيان الذى أقام قواعده فى فرنسا بقوة عزمته وصدق بلائه أخذ ينهار . وأكبر ظنى أن نابليون لن يقيم طويلاً فى مصر بعد أن وصلت إليه أنباء هذه الكوارث .

ثم أخذ يقرأ على فقرات مما جاء بالجريدة فكان منها أن الفتنة اشتدت بألمانيا والنمسا وإيطاليا ، وأن السخط وبوادى الثورة على حكومة فرنسا عام شامل ، وإن إنجلترا لا

تفتأ تشنّ غاراتها على أملاك فرنسا بالبحار، وأنها اجتذبت إليها روسيا وتركيا فصارحتا فرنسا بالعدوان . وهنا قال محمود : إن خروج نابليون من مصر فرار من الميدان ، واعتراف صريح بأن السيف والنار لا يستطيعان أن يملكوا القلوب أو يُنهّيا من عزيمة أمة عزلاء أمضت إرادتها أن تعيش عزيزة لا تلين قناتها لغاصب . هذه الأخبار يجب أن يطلع عليها الشيخ السادات ، فلهم بنا إليه .

## - ١٠ -

لقيت زبيدة من زوجها مينو أول الأمر شغفاً وهياماً وطرقاً في الغزل وشكوى الصبابة لا عهد لها بها ، فكان يجثو أمامها في ذلة واستعطاف كما يجثو الراهب في محرابه ، ويتمتم في أذنها بأحاديث من الحب والوله تختلط بإشارات وحركات ينتفض لها قلب كل فتاة . وقد أتقن مينو هذا الفن بعد أن تدرب عليه طويلاً في مجتمعات باريس . وكان كثير من شبّان أوروبا في هذا الحين الذي كثرت فيه الثورات ، وخرجت فيه الأمم على كل قديم ، وتغلب فيه المذهب الأبيقوري ، يعدّون إغراء المحصنات بأساليب الختل والكذب فناً رفيعاً وثقافة عالية ، لا يكمل الرجل غيرها . فالذي لا يغازل أبله . والذي لا يستنزل فضيلة المرأة البتول من قمة قدسها إلى أسفل درك لا يعد رجلاً كامل الدوق واسع العلم بالحياة . وكلما صعب نيل الفريسة زادت مهارة الصائد ، وكلما مُزّقت الحجب كان العمل فتحاً مبيئاً . وإذا تنافس فرسان العصور الوسطى في الشجاعة وإغاثة الملهوف والأخذ بيد الضعيف ، فإن فرسان أوروبا في هذا العصر كانوا يتنافسون في نصب الحبال للغيث الفاتئات . ولقد سرى الداء إلى النساء فلم يعد الطهر طهراً ، ولا العفاف عفافاً ، حتى إن المرأة كانت تباهى بكثرة عشاقها ، وتحاول بكل وسائل الإغراء أن تزيد في عددهم . وفتحت الأبواب في كل قصر لتلاقي الأخدان واجتماع الخلان في جهر وعلانية ، وأجاد الشبان دروس الغزل ، وأعدّوا لكل نوع من النساء نوعاً خاصاً منه ، كأنهم باعة ثياب يبيعون لكل مستام ثوباً على قدّه . وقد قطعوا الصلة بين اللسان والقلب ، وبين الوجه والضمير ، فهم يتحدثون عن الحب وليس في قلبهم منه إلا فتكات اللص وشهوات البهيم ، ويكون في ضراعة ووجد وضميرهم يسخر ويقهقه من غرور المرأة وقرب وقوعها في الشرك .

ولكن مينو كان زوجاً، عُقد له على زبيدة بكتاب الله وسنة رسوله بعد أن أعلن إسلامه وسجّله بالدفاتر، فلماذا يعصف به الحب ويدله الغرام، ومحبوبته بين ذراعيه، وهى له وحده لا يزاحمه فى حبها مزاحم؟ ألأن النشوة الأولى بهرت الرجل ولعب بلبه ما رأى من زوجته من سحر وفتنة، وهو من أخبر الناس بفنون الجمال؟ أم لأن الرجولة كانت عاتية طاغية فلم يملك إلا أن يجد لما يجيش فى نفسه متنفساً بالغزل وبث الغرام؟ أم لأن العادة جرفته فأخذ يكرر فى بيت الحاكم برشيد تلك الدروس التى حفظها وأجاد إلقاءها فى حفلات فرنسا؟

وكانت زبيدة بعد زفافها فى بحرمائج مضطرب من الأفكار والهواجس . أترضى بما قسمه لها القدر، وتقتنع بهذا الزواج الذى سيجلسها على عرش مصر، فتجزى زوجها حباً بحب؟ أم تسخط على صلة دفعها إليها أمل كاذب مغرر فتشكش بقدر ما يحسن بها الانكماش، ولا تعطى هذا الفرنسى إلا ما تسمح به الفتاة الملول؟ لم يكن فى الجنرال مينو شيء يغرى المرأة بالرجل قط: وجه غليظ دميم القسمات ثقيل الملمح، وجسم بدين إلى القماءة أقرب، وكرش بارزة كأنها الزق المنتفخ، ثم هو وقد خطا نحو الخمسين لم يبق فيه مأرب للنساء ولو كان فى جمال يوسف الصديق . فكرت زبيدة طويلاً وقدرت طويلاً، وسار بها الفكر فى شعاب مترامية البعد كثيرة الالتواء، فجال بخاطرها محمود وما أنعم الله به عليه من كمال فى الخلق والخلق، وجمال فى النفس والجسم، ورجولة ناضجة تهوى إليها قلوب النساء، وعقل راجح يلعب بالباب الرجال . جال ذلك بخاطرها فثار حبها القديم، وهاجت عواطفها الكامنة، وتأججت بفؤادها نار من الوجد طالما أخدمتها بماء دموعها، لأنها لن تصل بمحمود إلى ما تريد من ملك مصر، ولأن حبه لا يحقق لها تلك الأحلام الذهبية التى منّ بها رابحة العرافة . وماذا تعمل وقد خلقها الله من آمال وطموح، وسلحها بعزيمة ماضية الحد ترد عنها كل ما يصدها عن هذه الآمال؟ محمود ريحانة قلبها ونور عينيها ومطمح غرائزها، وهى لو أرادت أن تعيش كمثيلاتها لم ترض به بدلاً، ولنعمت فى ظل حنانه بالحب والنشوة الحلوة والسعادة التى تصبو إليها كل فتاة، ولكنها لا تريد أن تكون كمثيلاتها ولو أحرقت الوجد فؤادها، وجشمتها إسكات غرائزها النهمة عناء طويلاً . وأين الحب وأين لذته، وأين محمود وأين جهارته، من مُلك سامق البنيان عزيز السلطان تعنو إليه الوجوه وتنحنى الرؤوس؟ هكذا مضت أيام زبيدة، وهى تفكر وتشير غبار الماضى، لا يمر بخاطرها ذكر محمود حتى تشور عليه حزيمة مثالمة،

فإذا نسيتيه أو شغلها عنه شاغل حنت إليه وتشبثت بخياله تبثه وجرأ متاججاً وحباً كميناً . ولكنها أبت فى النهاية على الرغم من طموحها وتضحيتها فى سبيل هذا الطموح بكل غال ، أن تمنح قلبها رجلاً جرّ العار إليها وإلى أهلها . فقد فرأبوها من المدينة يوم خطبتها ، وبخع الحزن نفس أمها أسفاً ، وجانبتها عشيرتها فأصبحت أشبه بأسيرة فى جيش الأعداء ، وإن أحاطت بها صنوف النعيم . ثم هزت رأسها فى تصميم وقالت : محال أن يظفر هذا الفرنسى بحبى . وفى ذات صباح أطلت من نافذة قصرها فرأت الجنود والحراس وقد التفتوا حول امرأة فى ملاءة بالية ، وهى تصيح فى وجوههم وتقذفهم بأبلغ ما تضمنته معجمات العامة من شتائم ، فأطالت زبيدة النظر فإذا هى رابحة العرّافة ، فأرسلت فى عجل إحدى وصائفها لتأمر الجند بإدخالها . وبعد قليل دخلت رابحة وهى تصخب وتلعن ، والنساء دائماً أشد جرأة على الجنود الغزاة من الرجال ، لأنهن يتسلحن بالضعف ، ويملكن من وسائل التشهير والصراخ والولولة ما ليس فى مكنة الرجال . دخلت رابحة على زبيدة مربدة الوجه ، وبعد أن تنهدت طويلاً ، قالت :

- أسعد الله صباح الملكة .

- الملكة ؟ هكذا مرة واحدة يا رابحة ؟ إن الفرنسيين لم يدعوا فى مصر ملكاً ولا ملكة ولا أميراً ولا أميرة .

- نعم ، ولكن كل هذا لن يحول دون أن تكونى ملكة ، إن علمى لن يكذب أبداً ، اللهم إلا إذا محيت خطوط كفك اليمنى .

- وهل تمحى خطوط الكف ؟ ليتها تمحى !

- لن تمحى ، لأنها صورة فى كتاب القدر .

- ولكن أين أنا الآن من هذا الملك الموهوم ؟ وهل زواجى هذا الفرنسى يقربنى خطوة إليه .

- لا أدرى ؛ لأننى أعرف الغايات ولا أعرف الوسائل ، وكثيراً ما دهشت لأعاجيب القدر ، وكثيراً ما كتمت ما أراه من لمحاته حتى لا يسخر الناس منى ، وكثيراً ما توقعنى صناعتى فى مشكلات يصعب منها المخرج . أذكر أنى قبل أن يدخل الفرنسيون البلد بسنة واحدة كنت مارة بهذا القصر ، وكان به عثمان خجاء حاكم المدينة فوسوس إليه شيطانه

وزين له غروره أن يدعوني لأبصر له كفه حتى يتسلى بالضحك منى والاستخفاف بتكهناتى، فدخلت عليه وهو متكئ فى صلف وكبرياء على مقعد طويل، والجند حوله شاكو السلاح، والرهبنة تطبق على أنحاء المكان، والشيخ البربر يحتال جهده على أن يستل ابتسامة خفيفة من بين شفتيه لكثرة ما يقص من نواتره المضحكة ونكاته البارة. دخلت فلم أسلم عليه، لأن الدماء البريئة التى كان يريقها كل يوم ظلماً، والأموال التى كان يفتصبها اغتصاباً حبست لسانى ودفعتنى إلى ازدراؤه واحتقاره، كيفما كانت سطوته وكيفما علا مقامه الزائف. وما أنا والخوف من سطوته، ونحن الضعفاء الفقراء قد حصننا الضعف وصدّ عنا الفقر يد الظالمين؟ دخلت فلم أسلم فجمجم الحراس مستنكرين فى رياء وملق فلم أبال بهم، ثم قلت: ماذا تريد منى يا عثمان؟ أتريد أن أبحث فى كفك عن مدينة أخرى تخربها بعد أن أتممت خراب رشيد؟ فنهزنى سليم بك، وكان فى المجلس، وهم بطردى، ولكن الشيخ البربر قال شيئاً من الشعر معناه أن طنين الدباب لا يضير، وأن السحاب لا يضرها نبح الكلاب، وهو فى قرارة نفسه يريد أن يذود عنى هؤلاء الكلاب. فضحك الحاكم كأنه فهم الشعر، ومدّ إلى كفه قائلاً: أنظرى يا محتالة لعلك ترين فى كفى أنى سأم بقتلك. فنظرت فى خطوط كفه وهالنى ما نظرت! رأيت خطأ فيها لا يظهر إلا فى كف من يموت مصلوباً، فوجمت وتممت، وترددت بين الصراحة وفيها الضرب والهوان أو الموت، والمداخلة وفيها الخلاص من برائن هذا الأحمق. ولكنى عاهدت الله وعاهدتنى أمى أن أكون أمينة على علمى، فرفعت رأسى فى اعتزاز وجراة وقلت: أيها الحاكم إنك ستموت. فضحك من بالمجلس وصاح الشيخ البربر قائلاً فى سخرية مصنوعة: أفادك الله يا رابحة! ما كنا نظن أن أحداً مخلداً فى الأرض و... كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام هاتى كفك يا رابحة، إنى أرى فيك أنك سستموتين. ولكنى لويت عنه وجهى وقلت: أيها الحاكم إنك ستموت فى هذا البلد بعد ستين، وسيكون موتك بين السماء والأرض: فضحك سليم بك، وقال الشيخ البربر ساخراً: أخشى يا سيدى ألا أن يكون لك جناحان تخفيهما تحت ثيابك. ثم التفت إلى وقال: انصرفى يا رابحة، إن شيطانك اليوم ساخط عليك، يأبى أى يطلعك على لمحة من الغيب. فانصرفت بعد أن لمحت فى وجه الحاكم الفرع والغضب فعلمت أنه فهم ما قلت على الرغم من سخرية أصحابه بى واستخفافهم بقولى.

..ولكن عثمان خجلاً فرّ بجنوده يوم دخول الفرنسيين المدينة، وأكبر الظن أنه لن يعود

ما داموا فيها .

- إنه سيعود حتماً ، وسيعود بعد أيام ، وسيصلب فى رشيد .

- وإننى سأكون ملكة حتماً ؟ ومتى ؟

- قريباً وإن كنت أعتقد أن حكم الفرنسيين لا يدوم طويلاً .

- لا يدوم طويلاً ! إذاً متى أكون ملكة ؟

- ستكونين ملكة فلا تخافى .

- وكيف لا أخاف وقد عقد القدر مآلى بمآلهم بعد أن أصبحت زوجة لأحد كبرائهم ؟

- هذا ما لست أدريه ، لكن الذى أعلمه حقاً أنك ستكونين ملكة مصر ، والله وحده هو الذى يصرف الأسباب ويقبّل الليل والنهار . لقد زرت أمك منذ أيام فساءنى ما رأيت من ذبولها وشدة حزنها لاختفاء أبيك . أما أعجبُ العجب فابتهاج أخيك على الحمامى وازدهاؤه بصهره الجديد ! لقد نسى المسكين كل معنى للرجولة بعد أن أغدق الجنرال عليه وجعله رئيس التجار وموضع الشفاعات ، وأجرى عليه النعم . فهو اليوم يركب جواده فى كبر وتيه ، وأمامه ثلة من الجنود الفرنسيين توسع له الطريق . ولن تذهب سفينة إلى القاهرة أو الإسكندرية إلا بإذن منه ، ولن يصدر هذا الإذن إلا بمال يكاد يصل إلى قيمة ما تحمله السفينة . كل هذا ثمن أسرك يا فتاتى فى هذا السجن الجميل المشرف على نهر النيل المبارك . وبينما هى فى الحديث إذا صوت جهير تتردد صيحاته فى الأفق تبثت فيه صوت الشيخ على سُرُيط وهو يقول :

« طاططوا الرءوس ، للعروس ، وإن ذهب الإسلام ، وعبث الذئب بالأغنام » .

فتجهمت زبيدة ووجمت رابحة ثم قامت وهى تقول :

سأطاطىء الرأس للملكة ، أما الإسلام فله رب يحميه . وانفلتت كأنها الطائر المروع . وبعد خروجها دخل المترجم إلياس فخر ليلقن زبيدة درساً فى اللغة الفرنسية ، وقد عهد إليه مينو فى ذلك . فكان يلقي عليها جملاً بالفرنسية مع بيان معانيها بالعربية ويطلب إليها تكرارها ، وكان لهذه الجمل سبيل واحدة ، فكلها من أمثال : أحبك ، لقد ملأ حبك قلبى ، لقد ملكت فؤادى ، إن غيابك يؤلمنى ، إلى غير ذلك من أمثال هذه الترهات ،

وكانت زبيدة تكرر هذه الجمل ذاهلة حزينة كأنها برىء من العصور الوسطى يحمل على الاعتراف بوسائل التعذيب. وبعد انتهاء الدرس أخذ المترجم كعادته يفيض في عظمة الجنرال وشرف محتده وعلو منزلته، ويصور لها ما ينتظرها من المجد الشامخ والعز السامق، وهى تهز رأسها بحركات آلية لا أثر للحياة فيها، وبعد قليل سمعت أصوات الأبواق، وعلا صياح الجند بالتحية لقدوم الجنرال مينو، واصطف الحراس واهتزت أرجاء المكان، ودخل مينو القصر في عظمة وجبرية، فسار تَوّاً إلى حجرة زبيدة فانحنى أمامها يقبل يدها، وحيا إلياس فخر بإيماءة من رأسه، وقال: كيف تلميذتك اليوم؟ إنها أدهشتني بالأمس، فقد فهمت كل ما ألقته في أذنها من الجمل اللطيفة. ثم التفت إلى زبيدة قائلاً: ألم تكن لطيفة يا حبيبتي؟ فأسبلت عينيها في ضجر يشبه الخفر، وقالت بعد أن تنهدت: نعم لطيفة. ثم قامت تتعثر في أذيالها كما يمشى الحالم، وغادرت الغرفة. وهنا التفت مينو إلى إلياس وقال: سيكون يوم الجمعة يوماً تاريخياً في رشيد. أتعرف حاكم رشيد التركي عثمان خجا؟

- كيف لا أعرفه يا سيدى وفي كل بيت في هذه المدينة من ظلمه دماء ودموع؟  
- أرسل إلى نابليون من عشرة أيام كتاباً من أبى قير يخبرنى فيه بانتصاره على مصطفى باشا كوسه وأنه أسر من جيشه عدداً عظيماً بينهم عثمان خجا هذا.  
- ولكن عثمان خجا كان قد فرّ إلى إستانبول عند دخول الفرنسيين.

- نعم ولكنه عاد مع جيش مصطفى باشا ليطردنا من مصر، ويقضى على البقية الباقية من رشيد. قاتل الله هؤلاء الترك! نريد أن نصانعهم فإبون إلا الانضواء تحت راية أعدائنا الإنجليز، أرسل إلى نابليون كتاباً كما قلت يشيد فيه بانتصاره الحاسم، ويطلب منى أن أجمع مجلساً من العلماء والأعيان لإصدار فتوى بقتل عثمان خجا. وقد اجتمع المجلس وأصدر الفتوى وسيصل المسكين إلى رشيد بعد أسبوع. ثم أخرج من جيبه ورقة فقرأها إلياس، وترجم لسيده ما فيها، فكانت هذه عبارتها لم تغير فيها حرفاً.

«وصلتنا مكاتبتكم، بالأمر أننا نستخبر ونكشف عن جميع الأعمال التى حدثت في طرف عثمان خجا كردلى، وننظر إن كان حصل منه الشر أكثر من الخير، وبموجب هذا الأمر بحضور: حضرة سيدنا شيخ الإسلام العالم المتورع الشريف أحمد الحضرى المفتى، ونقيب الأشراف المكرم المحترم الشيخ بدوى، وقدة الأعيان أحمد أغا

السلحدار، والمكرم على شاويز كتحدا، وقدة التجار إبراهيم الجمال، والشريف على الحماني، والشيخ مصطفى طاهر، والشريف إبراهيم سعيد وبحضور جماعة المسلمين خلاف المذكورين أعلاه.

ثم حضر رمضان حموده، ومصطفى الجيار، وأحمد شاويز عبدالله، والحاج حسن أبوجوده، وبدوى دياب، وحسن عرب، وثبت من إقرارهم ومن شهاداتهم أن عثمان خجا المذكور كان ظلمهم ظلماً شديداً بالضرب والحبس بدون وجه حق، ونهب أملاكهم، وخلاف ذلك سئل جماعة من المسلمين الحاضرين في المجلس إن كان حصل من عثمان خجا الشر أكثر من الخير فكلهم قالوا بلسان واحد: إنه حصل من عثمان خجا الشر أكثر من الخير، وبسبب ذلك يقطع رأس عثمان خجا حاكم رشيد سابقاً.

وبعد أن أتم إلياس قراءة هذه الفتوى، دخل على الحماني فحيّ الجنرال كما تحيا الملك، وانتحى ناحية قاصية في الغرفة حتى إذا أوماً إليه مينو بالجلوس جلس مطرق الرأس يجمع أطراف ثوبه في أدب وذلة، ويخفي قدميه تحت الكرسي مبالغة في الخضوع، فلما اطمأن به المجلس سأله مينو.

- هل سافرت السفن إلى القاهرة؟

- نعم ياسيدى سافر اليوم عشرون سفينة محملة بالأرز الأبيض، فيكون مابعث به إلى القاهرة في هذا الشهر سبعين سفينة، منها ثلاثون محملة قمحاً.

- هل تألم التجار من إرسال هذا المقدار العظيم؟

إنهم دائماً يتألمون ياسيدى، ولو ترك لهم الأمر ماسمحو. بسفينة واحدة، لأنهم يبيعون أردب القمح خفية بسبعة عشر ريالاً، في حين أنه يباع للجيش الفرنسي بثلاثة ريالات. أما الأرز فكثيراً ما ضُبطت السفن وهي ذاهبة به إلى دسوق ليبيع هناك بسعر مرتفع. ثم التفت إلى المترجم ليعينه في ترجمة ما يصعب على الجنرال فهمه، وقال: هؤلاء التجار ياسيدى لا يملأ عيونهم شيء. هم يعلمون حق العلم أن هذه الحبوب ترسل إلى الجيش الفرنسي الذي يدفع عنهم فتك الترك ونهب العرب، ومع هذا لا يخرجون شيئاً من الأرز أو القمح إلا بعد التهديد والتعذيب. ولولا الخوف الذي يملأ نفوسهم ما جادوا

على الجيش بحجة واحدة . ومن الغريب المعجب أنى كنت بالأمس عند الحاج سالم الغزولى ، وهو رجل مكر ختال واسع الحيلة ، عبقرى فى تزويق الكذب وإحاطته بإطار من الإيمان التى تغمس صاحبها فى النار ، لذلك أعددت العدة لمكره ومحاله ، فبعثت حوله العيون وأصحاب الأخبار حتى علمت أنه يخبأ قدراً عظيماً من الأرز فى مخازن داره . فلما ترادفت عندى الأخبار ذهبت إليه فى دائرته بعد أن أرسلت إلى داره طائفة من العمال والحمالين لينقبوا جدار مخازن الدار ويستخرجوا منها ما يجدونه من أرز وقمح . فلما رأتى تهلل وجهه بشراً ، ونثر فوقى من عبارات الترحيب والشوق ما تعجز عنه أم عاد إليها وحيداً بعد لوعة وإياس . والعجيب أن ألفاظه رنين الذهب الخالص الذى لم يشبه زيف ، ولم يخلط به ما يكدر معدنه الكريم . ثم وثب مع التحية إلى امتداد الفرنسيين والإشادة بعدلهم وسماحة حكمهم ، وأخذ يوازن بينهم وبين الترك فى ذلاقة لا يستطيعها سواه . ثم التفت إلى وقال : كن معهم يا سيدي الشريف كما أنت ولا تبال ما يقول الناس ، فإنهم اعتادوا الظلم فإذا رفع عنهم تشوقوا إليه ، وأسفوا على أيامه الماضية . إن الخفافيش لا تعيش إلا فى الظلام ، فإذا سطع عليها النور اضطربت ولاذت منه بالفرار . وهؤلاء العبيد الذين نسومهم الخسف لو أطلقنا سراحهم فى الصباح لعادوا إلينا فى المساء ولحُثوا إلى الدلّ الهنىء فى ظلال ساداتهم . ثم انطلق إلى حديث ثان وثالث ، وأظنه كان يتوجس أنى جثت لطلب شيء فأخذ يملأ الحجرة حديثاً حتى لا يتسع فيها قول لغيره ، وحتى يصرفنى بسحر محاضراته عن أن أنبس بكلام ، ولكنى قاطعته وهو ينتقل إلى موضوع فسيح يستطيع أن يتكلم فيه اليوم كله ، وطلبت منه مائة إردب أرزاً للجيش الفرنسى . فقال : آه يا سيدي هؤلاء الفرنسيون لو أطعمناهم المن والسلوى ما كافأناهم ، ولو شوينا لهم فُلذات أكبادنا ما وفينا ديننا لهم ! من يضمن على هؤلاء المجاهدين بقوته وقوت عياله ؟ إنه لن يكون إلا حجراً صليداً لا خلاق له من الرجولة والإحساس الكريم .

ولو أن لقمة كانت فى أذيال السحاب ، وكان لى نهوض الطائر لحلقت حولها واختطفتها لأضعها فى فم فرنسى . إن ما نحن فيه من نعمة واطمئنان وثروة لم يكن إلا منحة أيديهم وفضل سماحتهم ، دع مسألة الدين بالله عليك يا سيدي ، فإن الدين لله ، وأنف العمامة راغم ، وأنف العلماء راغم ، على أن صفات الوفاء والاعتراف بالجميل وشكر المحسن على إحسانه لا تعرف مذهباً ولا جنساً ولا ديناً . من يا سيدي لا يبذل كل ما عنده للفرنسيين ؟ ولكنى أقسم بذات الله العلية ، وقدرته الصمدانية ، وبقبر المصطفى صاحب

المقام المحمود، والشفاعة العظمى فى اليوم المشهود، إني لا أملك حبة أرز ولا أحوز حبة قمح، وإليك الدائرة يا سيدى الشريف ففتش كل مكان فيها إن شئت. ولقد كنت أتمنى أن تمتلىء هذه المخازن سمناً وعسلاً وحَباً لأهبها جميعاً للفرنسيين! آه ما أشد حزنى حين أريد فلا أقدر، وقد كنت فى أيام الترك أقدر ولا أريداً ليت الأرض تمور بى موراً، وليت الموت ينسفى نسفاً، بعد أن عجزت عن أن أعمل شيئاً يكون آية لإخلاصى للفرنسيين وفنائى فى حبيهم. وبينما هو منهمر فى حديثه كالسيل الهدار إذ أقبل أحد عماله صائحاً فى دعر وهلع: يا سيدى إن بعض عمال السيد على الحمامى نقبوا جدار المخازن بالدار، وهم الآن يحملون كل ما فيها من أرز وقمح. فبهت الرجل وهو ممن لا يبهتون سريعاً، غير أن المفاجأة خلطت عليه أمره وأذهلته لحظة عن نفسه استطاع بعدها أن يثوب إلى طبعه، فالتفت إلى وأخذ يقهقه ويضرب الأرض بقدميه، ويهز كتفى هزاً عنيفاً، ويقول والضحك يفصل كل كلمة من كلماته عن صويحباتها: كنت أختبر ذكاءك يا سيدى! وكنت من الغرور بحيث أظن أن حلاوة منطقى وبريق ألفاظى يذهلانك عن الحق. وأقسم بذات الله العلية، وقدرته الصمدانية، ولو أنك خُدعت لاحتقرتك وازدريتك، وحزنت أشد الحزن أن يكون سليل النبىء الكريم قدماً مغفلاً. أما الآن فالحمد لله ثم الحمد لله على أن لم يضع أملى فيك وأنت صديق ابن صديق، وعزيز ابن عزيز. خذ ما حملة رجالك من مالى حلالاً وإن شئت فادفع ثمنه أو فدع.

فعمجبت من حسن انفلات الرجل وسرعة عارضته، ودفعت له الثمن وهو مرح. ضحك. وهنا قال الجنرال:

هذا رجل زكىّ دَوَّار ولكنى أخشى ألا نكون قد تركنا لأهل البلد من الحبوب ما يكفيهم.

- الواقع يا سيدى أنهم فى ضائقة ولكن غلة العام القابل ستكون وافرة.

وفى هذه اللحظة دخل إينال مملوك الجنرال الخاص وقال فى صوت خافت: حان وقت الجمعة يا سيدى الجنرال، والجنود على استعداد لموكب الصلاة التى ستكون فى مسجد زغلول. فظهر على وجهه مينو الامتعاض الذى يظهر على وجه مريض تُقدَّم إليه جرعة لا تساغ، وقام فى تناقل وهو يقول: الصلاة، الصلاة، دائماً الصلاة، ولا شىء غير الصلاة! ثم خرج فإذا موكب حافل من فرسان الفرنسيين وجنود المماليك والترك، وقد

حمل كل فارس الراية الفرنسية خفاقة فى الهواء متخيلة فى الفضاء، والموسيقى تعزف النشيد الوطنى الفرنسى . وكان مينو فى وسط الموكب فوق جواد كُميت يخال فى مشيته كأنما سرى إليه زهو صاحبه ، حتى إذا بلغ الركب المسجد دخل مينو حاسراً عن رأسه ، فتلّقه الإمام وفى يده عمامة خاصة به كانت تحفظ فى خزانة بالمسجد ، فلما وضعها على رأسه طافت حول شفتيه ابتسامة خفيفة مبهمة ، تذكّر عندها باريس ، وتذكر ملاحيه فى مرسيليا وبوردو ، وعجب من الضرورة التى دفعته إلى دين لا يعرفه بعد أن طلّقت فرنسا كل دين ، وتذكر هنرى الرابع الذى اعتنق المذهب الكاثوليكي ليفوز بملك فرنسا وقال : ليس بغال أن يشتري عرش فرنسا بقدّاس . تذكر كل هذا فتملكه زهو الملوك ، وطاف بنفسه أنه فوق طبقة البشر، غير أن صوتاً جهيراً فى هذه اللحظة انطلق من المثانة فصكّ أذنيه صائحاً : الله أكبر! الله أكبر! فلم يلبث المسكين أن نكس رأسه فى استخداء ، وعلم أنه لا شىء .

## - ١١ -

انفردت زبيدة فى حجرتها بعد أن تركت مينو ، وقد ساءها كثيراً حديث العرافة تركهاتها ، وهجم عليها همّ جائم لا تستطيع له دفعاً ، وهالها أن تصطدم آمالها بصخرة من الحقائق لا ترحم حزناً ولا تواسى بائساً وبينما هى تحمق فى صور ماضيها الجميل وهى تمر بخيالها متتابعة ، وتود لو تستطيع أن تطيل وقفة هذه الصور المرحّة الضاحكة قليلاً ، أو أن تحول دون ظهور أية صورة من ماضيها القريب الذى كله هموم وأحزان ، إذا خادمها سرور يثق الباب ويعلم قدوم سيده نفيسه . ولم يمض إلا قليل حتى دخلت أم زبيدة وقد برّح بها المرض حتى أصبحت لا يكاد يعرفها من رآها ، فقد زادت غصون وجهها ، وانطفأ بريق عينيها ، وانحنى ظهرها تحت ما يحمل من أرزاء وأعباء . دخلت فقُبّلت وجنتى بنتها فى شغف واحترق ، ثم حاولت أن تكتم ما يبدو من جزعها بضحكة مصنوعة أو نكتة بارعة فلم تستطع ، ولكنها قالت فى النهاية : كيف حالك يا زبيدة؟ فتنهدت زبيدة طويلاً وقالت :

- تسألين عن حالى يا أماه؟ أو تريدين حقاً أن تعرفيها؟ إذا فاسمعى : لقد كنتُ يا أمى فى سفينة بين أهل وأحباب ، حديثهم ابتسام ، ومناجاتهم غرام ، ينعمون فيها بنعيم الروح ولذة الجسد ، بين رُوح وريحان ، وضحك من القلوب لا من الأفواه ، وحب تعجز أن تعبر عنه الشفاء ، كأن الدنيا لم تخلق إلا لهم ، والسعادة لم ترف إلا عليهم ، ألغوا الزمن فلا

ليل ولا نهار، وألغوا الفكر فلا خوف ولا حذر، وألغوا الغيرة فلا حقد ولا دُخل، وبينما كانت هذه السفينة الفردوسية تمخر العباب يا أماء مزدهية مختالة، تجرى فتداعبها اللجج، وتجر ذيلها فتقبله الأمواج، إذا عاصفة عاتية هوجاء كالجنون، مدمرة كالموت، ترفع البحر ثم تقذف به، ثم ترفعه ثم تقذف به، كأنه كرة في يد ماردي جبار. فلم تلبث السفينة يا أماء أن ذهبت بدداً، وتمزقت قطعاً، وهالتي الأمر، وأخذ منى الهلع فنسيت التدبير، ونسيت الرأي، ونسيت الحيلة، وتشبثت بقطعة من السفينة خائرة قد فتنتي بها الأمواج إلى جزيرة فيها أشجار، وفيها أنهار، ولكن ثمر أشجارها زُقوم، وماء أنهارها سموم، وهى قفر من بنى الإنسان إلا مخلوقاً غريب السمة جاء يتودد إلى ويتخذنى له زوجاً. أما أهلى، وأما أحبابى، فقد تفرقوا أيدي سبأ، وبقيت وحدى فى هذه الجزيرة الملعونة مع هذا المخلوق الغريب. هذه حالى يا أمى. وكيف حالك أنت؟

- أنا كنت فى ركاب هذه السفينة، وقُذفتُ إلى جزيرة أخرى ليس فيها أحد من بنى الإنسان، ولكنها ملأى بوحوش من هموم وآلام. أما أبوك فرماه الموج إلى جزيرة نائية لا نعرف إليها طريقاً.

- وابن خالتي محمود فى جزيرة رابعة آآه يا أماء! هل يلتقى هذا الجمع الشثيت؟ وهل تعود تلك الأيام التى كانت حُلماً هنيئاً؟  
- تعود عندما تهدأ العاصفة، ويسكن البحر المائج، وتجرى فيه السفن مرة أخرى. حينئذٍ يستطيع كل منا أن يلوح لأحدى السفن بطرف ثوبه لتنتشله من جزيرة الأحزان، إلى الدار التى كانت تجمعنا فى ظلال العز والنعيم. لهفى على محمود! لقد وضع بين يديك حباً لو فُرق على الناس جميعاً ما ترك فى صدر غلاً ولا حفيظة، فنبذته فى قسوة وعزوف، فلم يئأس بل ثنى يده على قلبه صابراً وفيئاً وقلبه يقطر دماً، وراح يناجى الطير لما صرفت عنه أذنيك، ويضاحك الآمال لما أقصاه عنك العبوس. وقد كنت عنده رضية أم غضبية، وصلت أم هجرت، القدس الطاهر الذى لا يطلب على حبه ثواباً.

- كفى يا أمى إنك لا تعرفين. قاتل الله رابحة العرافة، وقاتل الله الطموح الكاذب، وقاتل الله الخيال الخصيب الذى جعلنى أبيع عزاً حاضراً، وحباً طاهراً، بأمل عقيم وأمنية حمقاء. فقدتُ ما فى يدي لأقبض على برق خلب يلعب فى أجواز الفضاء!  
- أكنت تحبين محموداً حقاً؟

- كنت أحبه؟ كنت ولا أزال ولن أزال، وسأموت شهيدة حبه، وسأردد للملكين عند سؤال القبر أنى أحبه.

- ولماذا رضيت بهذا الفرنسى؟

- لأن القدر هو الذى رضى به لى. على أننى أظن أنى ساعدت القدر بجنونى وتسويفى وتمسكى بخرافة بعث بها روحى وجسمى للشيطان. بالله دعى الحديث فى هذا يا أمى، فلأننى أتخيل دائماً أن شبابى ميت مسجّى، وأننى بجانبه أنثر عليه الدموع.

- ولكن هذا يقتلك يا بنيتى، فاطوى الماضى، وأصلحى من شأنك بالطمأنينة لحكم الله. إن حسن الأشياء وقبحها أمران خياليان: فالنفس الجميلة الراضية ترى كل شىء جميلاً، والنفس الساخطة الصاخبة ترى كل شىء قبيحاً. أنظرى إلى ما أنت فيه من عز وجاه، وإلى هذا القصر الفخم والرياش الفاخر، ثم إلى هؤلاء الخدم والعبيد وقولى لى سعيدة، وأقنعى نفسك بأنك سعيدة تكونى سعيدة حقاً.

- هيهات يا أماه! هذا كلام لطيف برّاق. إن من الجائز أن يُقنع الإنسان غيره بما يحسن أنه حق، أما أن يقنع المرء نفسه بعكس ما يحسنه فهو محال. إن محموداً خلُق ليكون لى زوجاً، وخلقت لأكون له زوجة، ولكن القدر الساخر أراد أن يتحكم فى طبائع الأشياء، وأن يعبت بالفرائز والميول، فاستهوى غرائزى وخدع ميولى، فأغلقت باب سعادتى ببدى، وسننت السكين لقطع كل صلة بينى وبين السعادة والحب والحياة. ويحى عليك يا محمود! إنك تظننى امرأة غادرة فاجرة، ولك الحق فى أن تظن ما تشاء. أفنيت كل أساليب الاستعطاف والغزل والتذلل والاستجداء أمام قلب صخرى كان عنك ذاهلاً تغويه الأحلام، وتصدّه دونك الأوهام. لِم لا أطيّر إليه فى القاهرة وأحطم هذه القيود الظالمة التى يسمونها قيود الزوجية؟ وهل كانت الصلة بينى وبين هذا الفرنسى شرعية؟ وهل ينعقد زواج فتاة فرأبوها فاقترضتها طائفة من أصحاب المنافع من أهلها فكتبوا ما كتبوا وسجلوا ما سجلوا؟ وهل يعدُّ قبول فتاة فى هديان حمى الأوهام، وجنون الطموح المأفون قبولاً؟ لا يا أماه. إن الناس جميعاً يعدوننى خلية لهذا الفرنسى. وإن ائتمار طائفة من العمائم بفتاة مسكينة، وتدوين عقد زواج فى محكمة، لا يغير من وجه المسألة شيئاً. إن الشرع الشريف كما أخبرنى الشيخ صديق يوجب الكفاءة بين الزوجين. وأول ما أفهمه من معنى الكفاءة إنما هو تماثل الأخلاق وأتساق الطباع. وأين ذلك التماثل بين فتاة مصرية

فى رشيد وشيخ فرنسى من باريس ؟ وقد كان محمود العسال يقول لى إن زوج الرجل يجب أن تكون قطعة منه ، ويكرر الآية الكريمة : ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ . فالقرآن ينص على أن الزوجة من نفس الرجل ، ويجعل ذلك سبباً للسكون إليها والسعادة فى كنفها ، وتبادل المودة والرحمة والحنان بين الزوجين . وأعتقد أن هذه الآية صوّرت فى إيجاز ما يريده الفقهاء من معنى الكفاءة الزوجية ، لأن المرأة إذا كانت من نفس الرجل وجب أن يتماثلا فى الحب والعادات والأفكار والميول . وأين أنا من هذا الفرنسى ؟ شرق وغرب بينهما آميال و آميال ! وتباين كامل فى كل شىء ، حتى لنكاد نكون من صنفين مختلفين . فهل بعد هذا أخضع لهذا الزواج ؟ وهل بعد هذا أرضى بهذا السجن الموحش ولا أفرّ إلى محمود ؟

- بالله عليك يا زبيدة لا تضى إلى حزننا حزناً جديداً . فقد طفح الكيل ، وبلغ السيل الزبى .

- إن الفرار من العار ليس بعار .

- ولكن فرار الزوجة من بيت زوجها إلى بيت رجل آخر عار أى عار . ثم من هو زوجك ؟ هو رجل نافذ الأمر قوى السلطان شديد البطش ، فلو فررت منه فى أنفاق الأرض ، أو أبراج السماء لامتدت إليك يده ، ولنكّل بك وبنا وبابن خالتك محمود . على أن فرارك سيثير الفضيحة من جديد ، وينبه العقول إلى أمر أو شكت أن تنساه ، ويجرّىء الأيدى القاسية على العبث بجرح أخذ يندمل .

- ليس لشىء من هذا يا أمى أخشى الفرار ، فما أبالى الناس ولا آبه لحديثهم إذا ظفرت بمحمود ، واختبأت معه بقرية مجهولة نائية ، لا تصل إليها عيون الفرنسيين . ولكنى أخشى الفرار لشىء واحد كلما مرّ بخاطرى وددت أن الأرض ابتلعتنى ، أو أن السماء أقلّتنى . ويلاه يا أمى ! إنى أخشى ألا يمر بنا هذا الحادث دون أن يضع وصمته .

- ماذا تقصدين يا زبيدة ؟

- أقصد أن المرأة إذا عاشت مع رجل شهوراً ففى أغلب الظن أن ينشأ بينهما ثالث .

- وهل شعرت بما تشعر به الحامل ؟

- لا ، ولكن من يدرينى ؟

- صانك الله يا ابنتى من كل سوء، وكشف عنك كل ضرر.

- ليس لنا إلا أن نلجأ إلى الله، فإن فى الالتجاء إلى رحمته راحة للمحزونين.

أسمعت شيئاً عن أبى؟

- لا يا زبيدة، وقد كتبت إلى أختى أمينة وإلى محمود فكان جوابهما أنهما لم يعثرا له على أثر بالقاهرة بعد طول البحث، وأخشى أن يكون . . .

- لا تقولها يا أمى! فيكفى ما نحن فيه من مصائب وأحزان.

وهنا دخل سرور فى أدب وتردد، وجثا على قدمى نفيسة باكياً وهو يقول: يا سيدتى لا تحرمى سيدتى الصغيرة من زيارتك فلانى أراها دائماً حزينة كاسفة البال، فإذا جاء الجنرال تكلفت الجلد والابتسام، وهذا التكلف كما تعلمين أشد عليها من الحزن، وأنكى من البث والبكاء. أراها دائماً ساهمة حزينة فيقطع قلبى، ويشتد ألمى، لأنها ابنتى، ربيتها على كفى، وكنت أطعمها فأشبع، وأسقيها فأروى. إنها تغلق عليها باب الغرفة طيلة النهار لتنفرد بأحزانها وبكائها. وماذا يجدى البكاء؟ وهل ينفع حذر من قدر؟ بالله عليك لا تغيبى عنها يا سيدتى حتى تمسحى عنها بعض آلامها؟ إنها ليست بنتى زبيدة التى أعرفها من حين أن كانت فى مهدها. أين ضحكاتها المجلجلات، وبسماتها الساحرات، وأحاديثها الفاتنات؟ لا تغيبى عنها يا سيدتى!

فقاطعت نفيسة وقد وضعت يدها على كتفه فى حنان، وقالت:

- لن أغيب عنها يا سرور، إننى لم يبق لى من الدنيا إلا زبيدة وأنت، فأحرسها لى يا سرور، واسهر عليها وصنها بروحك ودمك. إن أول شيء اشتراطته عند زواجها أن تكون معها، فهى وديعتى عند الله وعندك، وهذا هو الذى يهئى نفسى، ويخفف من شجونى. ثم أسرعرت لقبلى زبيدة، وحيث سروراً، وخرجت وهى تخفى تحت نقابها سيلاً من الدموع.

- ١٢ -

كان يوم الجمعة السادس عشر من أغسطس سنة ١٧٩٩ م يوماً مشهوداً فى رشيد. فقد اجتمع له الناس فى الصباح أسراباً، وحشروا أرسالاً، وانطلقوا إلى ظاهر المدينة ينتظرون

قدوم عثمان خجاء من أبى قير. فازدحم الرجال والنساء والأطفال ازدحاماً لم يترك مجالاً لقدم، ولا حركة للذراع، فكانوا كتلة من البشر تلاصقت أجزاؤها، وارتفع ضجيجها، وعلا صياحها. وغصت سطوح الدور بمن فوقها حتى كادت تنقض، وامتلات النوافذ بمن فيها. وكلما تقدم الناس خطوات رأيت بحراً عبّ عبابه، واضطربت أمواجه، وتذكرت يوم النشور، يوم ينفخ فى الصور، ويبعث من فى القبور.

تقدم هذا الخضم المائج حتى إذا وصل إلى الكتيبان الرملية بالجانب الغربى من المدينة فاض فوقها، وسال بين شعابها، فحفّ التراحم قليلاً، ووجد الناس متنفساً، فجلسوا ينتظرون الضيف الكريم الذى قضوا ليلتهم يفكرون فى خير الوسائل لاستقباله. فمنهم من أعدّ نعلًا بالية، ومنهم من تسلح بمكنسة من عراجين النخل، ومنهم من أخذ يتمرن على ملء فمه بصاقاً لينضح به وجهه الوسيم. والتنافس فى الشرغيزة فى الناس. وللشعب إذا اجتمع نفسية خاصة لا تجد لها فى الفرد، فهو إذا صال جرىء مخاطر حقوق بطّاش، فى حين أن كل فرد من أفراد فسل جبان منخوب الفؤاد. وإذا غضب الشعب المجتمع فليس يعلم إلا الله ما ينتهى إليه غضبه من وحشية وجنون. والشعب الثائر طفل كبير، له عقل الطفل وتدلله وعبثه وتدميره. والشعوب تخضع للقوة الغاشمة وتخشاها، ثم تعادها، وقد تملكها أحياناً، وقد تستعذب عذابها أحياناً، ولكنها لا تنسى ظلماً، ولا تفرّ منها إساءة. وكان للشعب المقهور نفسين: نفساً تجامل وتصانع، ونفساً تدون وتسجل، حتى إذا ضعفت القوة التى تكبته قامت النفس المدونة المسجلة تعدّ سيئات الماضى وتشرّ بمظالمه، ووثبت وثبة الذئاب الضارية تنهش القوة نهشاً، وتضربها تضرباً. والجماهير مخادعة ختالة، تحمل اليوم على الأعناق من ستضرب به الأرض غداً.

بقى الناس ينتظرون قدوم عثمان خجاء، ووقف الجند يستعدون للموكب الحافل، وجلس العلماء والأعيان بعيداً على رصيف مسجد العرابى، حتى إذا مرّ نحو ساعتين ظهرت طلائع القادمين، وذاعت البشرى بين الجمع الحاشد، فترددت صيحات المتجمهرين تهزّ الأفق، وغلت دماؤهم بالغيط، وتواثبت قلوبهم للتشفى والانتقام.

وكان عثمان خجاء فى حلقة من الفرسان الفرنسيين والمماليك، وقد شهروا السيوف، وتكبّوا البنادق، وهو بينهم قمىء القامة، طويل الوجه، أشقر اللون، صغير العينين، قليل

شعر العارضين، مطرق الرأس، تذهب حدقته يَمَنَة ويسرة في حيرة وذهول، كأنه الهرَّ المطارد سُلَّت دون فراره السبل. وكان يلبس عمامة طويلة عليها شاشة حمراء، وحلّة من الحرير الأخضر واسعة الكمين، وسروالاً أزرق رُينت ساقاه بشریط مطرّز بالذهب.

وقف الفرسان ونزلوا عن خيولهم، وأقبل رئيسهم فكبّل يدي خجا. وهنا سُمعت ضجّة من بعيد فتصايح الناس: أقبل مينو. أقبل مينو. فانفرجت الصفوف، ومشى الجنرال وخلفه العلماء والأعيان. فلما وصلوا إلى عثمان خجا وقف الشيخ أحمد الخضري وأخذ يتلو حكم المجلس عليه بالقتل، وفي أثناء القراءة طفرت من شفّتي عثمان خجا ابتسامة خفيفة مبهمة تصعب ترجمتها، فيها سخرية، وفيها امتعاض، وفيها دُعر، وفيها استخفاف بالموت.

وما كادت تنتهي القراءة حتى تواب الناس لتمزيق الأسير المسكين، فحال الجنود بينهم وبينه، لا شفقة عليه، ولا رحمة به، ولكن ليُطيلوا تعذيبه، وليشفوا النفوس من السخرية منه. فأركبوه حماراً على وضع مقلوب، وعلقوا في عنقه أجراساً (ويسمون ذلك التجريس) وسمحو للناس بالبصق في وجهه وتلطّخه بالأقذار. وكان الشيخ بركات منادى المدينة بصيح بصوته الجهير: هذا جزاء الظالمين. هذا يوم الانتقام من الممالك السفاكين. أيتها القبور تحدّثي عمن فيك، وأيتها الأعراض اشتقي اليوم ممن دنسك تدنيساً، ويأيتها الأموال المنهوبة قولي كيف وصلت إلى خزائن الناهبين!

ووثب «عطية البطحيطي» وهو قرّاد المدينة ومضحكها إلى عثمان خجا فاتحاً ذراعيه وهو يقول:

أين كنت يا حبيب عيني، وأنيس وحدتي، وباب رزقي؟ لقد حزنا عليك طويلاً حين غبت عنا، واستوحش إخوانك القروء لبعذك الطويل. أين كنت يا جلجل؟ أين كنت يا يدي ورجلي؟ فهم الجنود بطرده، ولكنه صاح في غضب مصنوع: إنه قردي جلجل الذي فرّمني، فساءت حالي، وكسدت صناعتي. إنه فرد نجيب جدّاً، يكفيه الإيماء ليقوم بأحسن الألاعيب، الحمد لله على السلامة يا جلجل! ثم جذبه إليه ووضع في عنقه حبلاً وهوى فوق رأسه بالسوط وأخذ يحمله بالضرب العنيف على القيام بالعاب القروء.

ثم سار الموكب حتى وصل إلى شارع دهليز الملك، وهناك رأى عثمان خجا أمام بيته مشنقة أعدت للقاءه، فجَرَّ إليها جرّاً، ووضع الحبل في رقبته. وكانت رابحة العرافة

قرية منه، فلما شدَّ الجلاذ الحبل صاحت: الله أكبر! لقد صدقت كهانتى، ومات اللعين بين الأرض والسماء!.

وفى مساء ذلك اليوم اجتمع فريق من الأعيان والعلماء بمنزل الحاج أحمد شهاب، وذاكروا حوادث النهار، فقال الشيخ صديق: كنت أود أن يكون القصاص من عثمان خجاً مطابقاً للشرع الشريف. فقال السيد أحمد بدوى: إن المجلس يا سيدى سَمِعَ شهادة الشهود وكانوا كلهم إجماعاً على أنه كان سفاكاً غاشماً. على أن رجال المجلس يعرفون من ظلم عثمان خجاً، وفتكه بالأموال أكثر مما يعرف الشهود.

- إن الشرع يشترط فى مثل هذه الوقائع أن تقام الدعوى من أولياء المقتول، فهل أقيمت؟ ويشترط أن يكون المدعى عليه حاضراً بمجلس القاضى ليردَّ الدعوى إن استطاع، فهل كان عثمان خجاً حاضراً؟ أنا لا أقول إنه لا يستحق القتل، فقد كان شيطاناً مريداً، ولكنى أرى أنه لا يصح أن يحكم القاضى على رجل بالقتل لأنه يعلم أنه يستحق القتل، فإن من الأصول الثابتة أن القاضى لا يقضى بعلمه. هذه ناحية الشرع، فإذا اتجهنا إلى ناحية الأخلاق كانت الطامة أعظم، والمصيبة أفدح، أليس هذا الرجل هو عثمان خجاً حاكم رشيد الذى كنا نحن العلماء وأعيان البلد نتملقه، ونزين له أعماله، ونقبّل يديه، والدماء تقطر منهم؟ إذا تنكر له الدهر فلوى عنه وجهه، اجتمعنا فى مجلس الشرع الشريف ننش قبر ماضيه، ونحاسبه على ما كان قد اقترف من سيئات؟ ولو كان اجتماعنا بؤازع من أنفسنا، وغيرة صادقة على الحق والدين، لكان لنا بعض العذر، فقد يقول الناس إنهم حينما قدروا فعلوا. ولكن المؤلم حقاً، والمثير للشجن حقاً، إننا لم نجتمع إلا بإيعاز من الفرنسيين، وأخشى أن أقول إننا لم نحكم بالقتل إلا لإرضاء الفرنسيين. فقال الحاج أحمد شهاب:

- ليس من شك فى أنه يستحق القتل يا مولانا.

- أنا لا أجادل فى هذا! ولكنى أنظر إلى ناحيتين لو حافظ المسلمون عليهما لبقى الإسلام عزيزاً كما كان. هما: الدين والأخلاق. أليس كذلك يا مولانا الخضرى؟

فُهِت الشيخ، واصفر وجهه، لأنه كان يستمع لكلام الشيخ صديق واجماً، فقد كان شيخ المجلس الذى أصدر حكم القتل. ولكنه بعد أن تردد قال: القضاء يا سيدى الشيخ

فى هذه الأيام ابتلاء، وإننا نعمل فى هذا العصر الأتكد بمذهب من يُجيز التقية، فنُبشّ فى وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم.

وحينئذ رأى الشيخ البربر الشاعر بلباقته أن يوجه الحديث إلى مجرى آخر فقال:  
اسمعوا ما قلته اليوم فلعل فيه شيئاً من السلوى. فنشيط إليه الجماعة، وكانوا ملّوا  
الحديث فى الأخلاق والدين وقالوا: قل. فقال:

قالوا هوى رأس عثمانٍ فقلت لهم      نفستُم الكربَ عنا بعضَ تنفيس  
مضى بنو الترك فارتاحت سرائرنا      فهل رحيلُ قريب للفرنسيس؟  
فضحك القوم وتسارع بعض الشبان إلى كتابة البيتين، فأشار إليهم بيده وقال:  
اكتبوا أيضاً:

مضى ابن عفان إلى جنة      وابن خجا عثمانٌ للنار  
هذا شهيد الدار أكرم به      وذا قتيل الخزى والعار  
ثم اتجه السيد إبراهيم الجمال إلى البربر سائلاً:

- أرايت عثمان خجا على الحمار؟

- رأيت فلم أدر أيهما الحمار؟

- وهل قلت فى ذلك شيئاً؟

- لا يا سيدى لقد كان «الموقف» صعباً، والمسألة لا تحتاج إلى «تعليق» فعلا  
الضحك من كل ناحية، فلما هدا المجلس التفت السيد بدوى إلى الجمال وقال: أرسلتُ  
خادمى اليوم إلى ساحة القمح لشراء إردب من القمح فلم يجد بها حبة واحدة! فأسرع  
البربر قائلاً: إن القمح يا سيدى أندر اليوم من اللؤلؤ، وقد علمت أن النساء يتخذن منه  
قلائد فى نحورهن. فقال الشيخ صديق لقد أصبحت الحال لا تطاق. ومن العجيب أن  
يعين الفرنسيين طائفة من أهل البلد. فصاح الشيخ البربر قائلاً: مدد يا حمامى مدد!

صاهرت مىو فلم تترك لجائعنا      خبزاً نصون به نفساً من العطب  
مُتنا ومات بنونا بين أعيننا      جوعاً وعُرباً، فرفقاً يا أبا نسب!

فظهر الألم والحزن فى وجوه القوم. وبينما هم سكوت واجمون، إذا صوت يجلجل

فى فناء الدار، هو صوت الشيخ على سريط، وكان يقول: القاتل والمقتول سواء، وقد يتأخر الجزاء، طال الليل، وظهرت تباشير الصباح، ولكل غدوً وراح، والرحيل الرحيل، بعد قليل قليل. فنظر بعض القوم إلى بعض، وقال الشيخ البربر إن الشيخ علياً شديد التفاؤل هذه الليلة، أرجو أن يحقق الله رجاءه.

ثم أخذوا فى الإنصراف.

### - ١٣ -

نعود بالقارىء إلى القاهرة بعد أن قضينا معه وقتاً طويلاً فى رشيد، شهدنا فيه بعض حوادثها الجسام، نعود به إلى القاهرة لنرى أن الخطوب فيها ما زالت تتلاحق وتتعاقب، وسحائب الكوارث ما فتئت تتجمع وتتراكم.

فقد غادر نابليون القاهرة على حين غفلة من جيشه ومن أهلها، فى الثامن عشر من أغسطس سنة ١٧٩٩ م بعد أن رأى آماله ركاماً، وأطماعه أحلاماً، وبعد أن سمع بأذنيه ضحك القدر، وأحسّ بسخرية الأيام. فانطلق به النيل إلى أحد شاطئيه بالقرب من الإسكندرية حزيناً مهموماً، يرى فى كل موضع قدم قبراً، وفى كل لجة من لجج البحر شركاً. انطلق به النيل ويطبق يجرى ويمور كما كان يجرى ويمور منذ القدم، وأخذت أمواجه تقهقه من طموح الإنسان، وتحديه أحكام الزمان. نابليون يعود أدراجه إلى بلاده مخاطراً بنفسه، بعد أن انقطعت به إليها السبل، وربضت له بوارج الإنجليز فى البحر تنتظره، كما ينتظر الأسد الطاوى فريسته! جاء إلى مصر فلم يظفر بشيء، وأضاع كل شيء، فكلم وعد وكلم صانع، وكلم تنمر وهدد، فلم تفتح له مصر قلبها، ولم تلق أمام قوته سلاح ضعفها. قامت الثورات فى كل مكان فعجز بطل إيطاليا وقاهر النمسا، والفارس المعلم فى فرنسا، أن يخمد نارها أو يطفىء أوارها. ولم تغن عنه عدده وآلاته الحديثة شيئاً أمام عصي المصريين المخلصين، الذين قذفوا بأنفسهم للموت فى سبيل وطنهم. ثم ذهب إلى الشام فلقته الجزائر درساً أطار من نفسه ذلك الزعم، الذى سؤل له أنه رجل الدنيا وواحدها. نظر - وهو يغادر مصر - إلى جنوده المغاوير، فإذا هم حفنة من المهازيل الساخطين، أكلت الحروب والثورات والطواعين خيرة رجالهم، وحصدت نخبة أبطالهم. ثم البتت فرأى الجوع والفقر والسخط فى ظل سياسته، يمزق أوصال مصر

ويهدد كيائها، وأن قوانينه وفلسفته لم تجعل مصر سعيدة، وأن ما جمعه من الضرائب والمكوس لم يكف لنفقة جنده، وأن إيراد مصر أيام الممالك الجهلة الأغبياء كان أربعة أمثال إيرادها في عهده المتألىء الزاهرا ثم فكر في فرنسا وفيمن فيها، فإذا هم أعداء الداء قذفوا به في أثون مصر، ليستريحوا من توثبه وطموحه، وإذا زوجه «جوزفين» التي ألقى بحبه تحت قدميها، تدوس ذلك الحب وتنسى ذكره، كأنها أضغاث حال. ذكر كل هذا وهو واقف إلى جانب قصر القياصرة، على شاطئ البحر بالإسكندرية، فبكى ملء عينيه، وأن أنين البائسين. ولو أن مصوراً ماهراً رسم صورته عند قدومه مصر، وهو ينزل من قصر مراد بك ليعبر النيل إلى القاهرة، فاتحاً متحدياً مرتفع الصدر أصيد العنق، كان الأرض لم تنجب غيره، والتاريخ لم يظفر بسواه، ثم رسم صورته وهو ينزل إلى السفينة بالقرب من المكس، فيلقى بنفسه بين أيدي الأقدار، مطرق الرأس مثقلاً بالأحزان لظهرت قدرة الله وعزته، ولعلمنا أن الحياة سراب. وكان هاتفاً كان يهمس في أذنه وهو يجزّ رجله إلى السفينة قائلاً: أنزل أيها الفاتح المغوار، وأنج من البحر كما يشاء لك الله أن تنجو، وأدخل فرنسا مؤزراً الجانب عزيز السلطان، واقهر الممالك، وأذل الملوك كما يزين لك الطموح، وكن إمبراطوراً لفرنسا، وتطلع لحيازة الدنيا بحدافيرها، فلن تفلت من مخالب القضاء، واعلم أن في نهاية المحيط جزيرة صغيرة قاحلة تسمى «سنت هيلانة» لا تزال فاعرة فاهها لالتقامك.

سافر نابليون إلى فرنسا بعد أن جعل الجنرال كليبر خلفاً له بها. وكان كليبر شديد الإعتماد بنفسه، مولعاً بمظاهر الملك. وقد فذح المصريين في أول عهده بفنون من الضرائب اعتصرتهم اعتصاراً، فزاد سخط الناس، وتأججت الصدور بالغيظ، وكثرت الاجتماعات السرية والمؤامرات. وكان محمود العسال في ذلك الحين لا يزال بالقاهرة، وكان يكثر من زيارة لورا ونيكلسون. وقد آن لنا أن ندون هنا أن هذه الزيارات المتكررة، إلى قنوطه من الزوج بزبيدة، إلى ما كان يحسه من عطف لورا ورقتها وقوة جاذبيتها، جعلته يحن إلى بيت نيكلسون ويشعر عند مشاهدة لورا والجلوس إليها بلذة روحانية عجيبة، أبى عليه كبره أن يعللها، لأنه كان يريد أن يقبر حب زبيدة في قلبه، وأن يعتز به، ويتسلى بذكرياته، وإن كان حباً يائساً عميقاً. وحينما رأى نيكلسون تكرار هذه الزيارات، قرأ في وجه ابنته ابتهاجاً بها، عرض عليه أن يساكنهما في هذا الزمن المضطرب بالمخاوف والأحداث. فقبل محمود شاكرًا، وانتقل من بيت ابن عمه حسين إلى بيت لورا

بالحكّيين . وكان يخرج مع نيكلسون لزيارة المتأمرين على الفرنسيين ، أمثال : الشيخ السادات ، والسيد عمر مكرم ، والسيد المحروقي ، وغيرهم . وكانا يسقطان بين الحين والحين على الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، ليلتقطا منه أخبار القاهرة والأقاليم . فغشيا داره بالصناديق ذات ليلة ، فوجداه منحنيّاً على بعض الأوراق وقد وضعها على فخذه ، وأخذ يكتب فيها ما دُوّن في صحف انتشرت حوله . فلما دخلا دُعر الشيخ أول الأمر ، وانكب على الصحف يجمعها ويخبئها تحت سجّادته ، ولكنه حين عرفهما أخذ يقهقه ويقول : لا تؤاخذاني يا سيديّ ، فإننا أصبحنا في زمان نخاف فيه من خيالنا في المرأة . أسعد الله مساءك يا سيدي محموداً . ثم اتجه إلى نيكلسون وقال : كيف حال الحاج السوسى ؟ هل من أخبار ؟

- الأخبار عندك أنت يا مولانا .

- عندى أخبار سارة ، ويا حبذا لو صحت الأحلام ؟ فأسرع محمود سائلاً في لهفة واضطراب : وما هى يا مولانا الشيخ ؟

- علمت اليوم فقط من المعلم نقولا الترك المترجم ، أن كليبر فى أول ولايته كتب إلى الصدر الأعظم للدولة العثمانية رسالة مطولة يطلب فيها الصلح بين الدولتين . وأن تُعقد معاهدة لخروج الفرنسيين من مصر .

فقال نيكلسون : هذا ما ظننته ، فإن موقعة أبى قير الأولى التى حطمت سفنهم ، لم تترك فى نفوسهم خيالاً من أمل فى البقاء بمصر . ثم قال الشيخ الجبرتي :

- وبلغنى أن الأتراك بعد أن قابلوا هذا الطلب بالازدراء ، أرسلوا بسفنهم وجنودهم - كما تعلمون - إلى دمياط ، فهزمهم الفرنسيون شرّ هزيمة . فقال محمود : نعم يا سيدي إن كارثتنا بأصدقائنا أنكى من كارثتنا بالفرنسيين . فاستمر الشيخ وقال :

- ولكن الفرنسيين - على الرغم من انتصارهم - ألحوا فى طلب الصلح من العثمانيين . وقد علمت أن معاهدة وضعت شروطها باتفاق الفرنسيين والترك ، والإنجليز والروس . وأن خير ما فى شروطها أن يخرج الفرنسيون من مصر ، وأن يؤمّن سفر الجيش الفرنسى الذى يُبحر من مصر بأسلحته وأمتعته إلى فرنسا . فقال محمود :

- يا فرج الله ! وقال نيكلسون وهو يهز رأسه هزة نفى واستنكار :

- يخرج الجيش الفرنسى آمناً بعدده وآلاته ، ليشعل نار الحرب من جديد على إنجلترا؟ ما أظن إنجلترا ترضى بهذا . فقال الشيخ الجبرتى :

- إن «سدى اسميث» أمضى هذه الشروط .

- ما أظن . وهنا قال محمود لنيكلسون : يا سيدى إذا أرادت إنجلترا أن تمزق جيش فرنسا فلتخرجه من مصر أولاً ، ثم تمزقه فى أى مكان آخر

- أتمنى يا محمود أن يحقق الله ما تريد ، فقد نزل بمصر من الولايات ما يدك الجبال ، وإذا لم توافق إنجلترا على هذه المعاهدة ، فستكون الكارثة أفدح والبلاء أعظم ، ولكنى أعرف سياسة إنجلترا ، وقليلاً ما تكذبى ظنونى .

وصدقت الأيام ظنون نيكلسون ، وأبت إنجلترا أن توافق على المعاهدة فنقضها الفرنسيون وبرز «كلير» بجيوشه لمحاربة العثمانيين عندما بلغت جيوشهم «عين شمس» .

عندئذ اجتمع عدد عظيم من المتأمرين بدار السيد عمر مكرم ، وكان بين الجمع الشيخ السادات ، والسيد أحمد المحروقى ، والشيخ الجوهري ، ونيكلسون ومحمود العسال .

وبعد أن طال الاجتماع وزاد اللغط والجدال ، دخل الحاج مصطفى البشتلى زعيم الثوار ببولاق فقال : إن العثمانيين دخلوا القاهرة وانتصروا على الفرنسيين فى موقعة عين شمس . فصاح محمود العسال :

يجب أن نقضى على الحامية الفرنسية الباقية بالقاهرة ، وألا نبقى على أحد منهم ، فصمم الجميع على الجهاد ، وأرسلوا المنادين يدعون الناس إلى إقامة المتارس وحفر الخنادق ، وبعثوا البعوث فى شمال مصر وجنوبها لبث روح المقاومة والعصيان فى كل مكان . وزاد فى حماسة المصريين دخول ناصف باشا قائد جيش العثمانيين إلى القاهرة ، وحوله عدد من كبار قواد المماليك . وكان من أشد الناس نهوضاً بالأمر وتعصباً له ، أعرابى ملثم ، أخذ يعدو بجواده بين أحياء القاهرة محرّضاً مشجعاً داعياً إلى الموت فى سبيل الله والوطن . ومن المحزن أن نقرر هنا : أن هزيمة الفرنسيين كانت أكذوبة خلع الشرك والمماليك بها سكان القاهرة ، وأن كلير انتصر على الترك انتصاراً حاسماً ورد جيوشهم إلى الصالحية ، وانقلب إلى القاهرة بجنوده ليطفئ ثورة الثائرين .

ذهب نيكلسون ومحمود إلى دارهما بعد أن انفضَّ الاجتماع ، وقد هالهما ما رأيا وسمعا ، وتوجَّسا خيفة من عواقب الأمر ، وخشياً أن تبوخ الثورة كما باخ غيرها ، وتعود مصر إلى الأسر المهيمن .

قابلتهما لورا مدعورة وقالت : ما هذا يا محمود ؟ إنى رأيت من النافذة رجال الحى جميعاً يتسلحون للقتال ، وشهدت فارساً أعرابياً يدعوهم إلى الجهاد ، ويحثهم على قتال الفرنسيين !!

- هذه الثورة يا لورا ، وهى آخر سهم فى الكنانة ، فإذا أخذت فقدنا كل شىء .

- لن نخمد ، وليست هى آخر سهم فى الكنانة ، إن الشجاع دائماً يخلق من اليأس أملاً ، لأن اليأس فيه معنى الموت ، ولأن فى الشجاعة معنى الحياة . أدخل وأخبرانى بكل شىء ، فقال نيكلسون .

- إن الأمة أجمعت على الجهاد يا فتاتى ، وإن الفرصة مواتية ، فلم يبق من جنود الفرنسيين عدد يؤبه له ، أو يستطيع الصمود أمام الكثرة والتضحية .

- هذا صحيح يا أبى . ثم عادت إليها غريزتها النسوية ، وما تشعر به المرأة من الخوف والإشفاق على من تحب ، فقالت :

- وهل تحارب يا محمود ؟

- سأكون فى أول الصفوف ، وإذا بُرت يمينى انتقل السيف إلى شمالى . إننى يا لورا كلما فكرت فى أنك من أمة عزيزة مهيبة الجانب لا يداس لها عرين ، ولمحت ما فىك من الاعتزاز بقومك الذين لا يحوم بخيال غاصب أن يقترب من شواطئهم ، أدركنى ما يشبه الحسد ، ووددت أن أفخر ببلادى وقومى كما تفخرين .

- ستفخر يا محمود ببلادك ، وهى خالصة لأمتك لا يتحكَّم فيها غاصب ، وإذا لم يتنفس لك العمر ، فسيفخر التاريخ بك وبأمثالك المجاهدين . وأنت يا أبى ماذا سيكون شأنك ؟

- سأكون بجانب محمود ، وسأجاهد فى سبيل مصر جهاداً يحسدنى عليه أبنائها .

ثم قامت لتعد الطعام ، وهى فى خوف ووجل وإشفاق ، وتمنّت لو ظفرت بمحمود

وبحب محمود فى بلد هادىء أمين! وهل من العسير على القدر أن يحملهما معاً إلى «بليموث» مقر أهلها، ومهد صباحها، ليعيشا فى ظلال الحب وإدعين؟! وصورت لها الهواجس صوراً مخيفة ملأت نفسها رعباً. إن محموداً مقدام مخاطر، وهو إذا حمى وطيس الحرب أدركه جنونها فكدف بنفسه للموت سمحاً كريماً. ولكن هذا الخلق هو الذى تحبه فيه، وهو الذى تعشقه من أجله، فكيف تدوده عما تحب؟ ولو أنه أطاعها لعاد فى عينيها فسلا مسلوب الرجولة هزيراً.

وأشرقت شمس اليوم الحادى والعشرين من مارس سنة ١٨٠٠ م على مصر كلها أشام شروق وأنحسه، وكان حمرتها عند الزوغ دماء الشهداء الذين كتب عليهم أن تحصدهم المدافع وتنوشهم السيوف البواتر، وكان أشعتها وهى تضطرب فى الأفق، أسباب المنية امتدت فجمعت أبناء مصر المساكين فى شباكها.

خرج نيكلسون ومحمود فى هذا الصباح، وودعتهما لورا والهة حزينة، تظهر الجلد بقدر ما تستطيع، فإذا غلبها الدمع قهقهت لتزعم أن دموع الحزن من دمعات السرور. خرجا فوجدا القاهرة فى هرج وحركة دائبة، واستعداد للوثوب واستخفاف بالموت، وخلت البيوت من قطأنها، واختلط الحابل بالنابل، وتسلىح كل من يستطيع بما يستطيع: فمنهم من كان يحمل سيفاً، ومنهم من كان يحمل بندقية، ومنهم من كان يلوح بعصاً غليظة فى الفضاء، ومنهم من تسلىح بسكين ماضية. أما الأطفال والنساء: فملثوا حجوهرهم بالأحجار وساروا خلف الشجعان المجاهدين، يتنعمون بأناشيد نظمها الفطرة الساذجة، فأذكت من نار الحماسة ما تعجز عنه بدائع الأشعار. وقد قسموا أنفسهم فرقاً، وأقاموا المتارس فى جميع أحياء القاهرة وبولاق، ووثب بعض الثوار وفى مقدمتهم نيكلسون ومحمود على معسكر الفرنسيين فى ميدان الأزبكية كما ثب أمواج البحر الخضم على الشاطئ لتتكسر ثم تعود. وكان الفرنسيون - وقد امتلكوا القلاع والتلال حول المدينة - يصبون عليها وإبلاً لا ينقطع من النيران والقذائف، يدك أرجاءها دكاً، وينشر الدعر والموت فى كل مكان. وشمر الترك والمماليك عن سواعدهم وصالوا فى المدينة وجالوا، وأخذوا يرسلون النجندات ويقوون العزائم. وبينما كان نيكلسون ومحمود عائدین إلى دارهما فى أصيل ذلك اليوم، إذ لمح محمود الأعرابى المثلثم، وهو يخوض بفرسه فى جحيم المعامع ويصيح: إنى أرى الجنة وقد فتحت أبوابها للمجاهدين، ولم تبق إلا ساعة من نهار لتنجو مصر وينجو أبناؤها. فهلم إلى الموت! هلم إلى الموت! فالتفت إليه محمود - وكانت

حماسته قد حسرت من لثامه - فإذا هو زوج خالته السيد محمد البواب ! فتملكه الدهش ووثب حتى أخذ بعنان فرسه وصاح : خالى ! أنت هنا؟ أنت بالقاهرة؟ إني لم أدع ركناً فى المدينة إلا بحثت عنك فيه . ثم حبسه البكاء عن الكلام ، فوثب السيد البواب إليه وعانقه ، وارتفع البكاء والنشيج . ولغة الوجدان دائماً أفصح من لغة اللسان . حتى إذا هذأت نفساهما قليلاً ، قال محمود فى صوت خافت حزين :

- لم تستطع البقاء فى رشيد يا خالى؟

- إن حياة الكريم ليست نفساً يذهب ويحىء ، وليست طعاماً وشراباً ، وإنما هى شرف وكرامة ، فإذا امتهن الشرف وضاعت الكرامة كان الكريم بين إحدى تَختين : إما أن يموت ، وإما أن ينتقم . وقد جئت إلى القاهرة لأنتقم ، ولأغسل غيظى بدماء أعدائى .

- ذلك ما أفعله أنا الآن ، وهذا ما سأموت فى سبيله . وكيف جئت يا خالى؟

- غادرت رشيد ومعى مقدار من المال ، فسافرت إلى بادية البحيرة . وكان لى بين عرب «الهنادى» صديق قديم هو الشيخ عويس معوض ، فنزلت بخيامه وأخبرته بفاجعتى ، فأظهر لى من حسن المواساة وكرم الضيافة ما هو خليق بالعربى الكريم ، ثم غيرت زيمى عنده ، ورحلت مع ثلاثة من أتباعه ، حتى وصلنا إلى القاهرة فنزلت بخان جعفر بخطبة سيدنا الحسين ، وعزمت على إخفاء أمرى والجهد فى سبيل الله ، حتى ألقى الله .

- لا يا خالى ، لا بد أن تنزل عندنا . ثم أشار إلى نيكلسون وقال : هذا صديقى وأخى فى الجهاد الحاج محمد السوسى . أنظر إليه فهل تعرفه؟ فحدَّق فيه السيد البواب طويلاً وقال مردداً : أعرفه . ؟ . أعرفه . ؟ . وكيف لا أعرفه؟ إنه الخواجه نيكلسون تاجر الصوف والحرير برشيد ، ثم طوّقه بذراعيه فى شوق وحب صادقين وهو يردد : كيف حالك يا خواجه نيكلسون؟ أو إن شئت : كيف حال الحاج محمد السوسى؟ ما كدت أعرفك لولا أن نبهنى محمود ، لقد تغيّرت كثيراً يا نيكلسون فى زمان تغير فيه كل شىء .

ثم ألح عليه محمود أن ينزل معه بدار نيكلسون فقال : دعنى يا بنى فلانى أستأنس بوحشتى ، وأرتاح إلى وحدتى ، ثم أنساب كما ينساب السهم فلم يريا إلا غبار جواده . وعاد نيكلسون ومحمود إلى دارهما ، فأخبرا لورا بحوادث اليوم . وكان نيكلسون حزيناً

شديد التطير، وأخبرها محمود بما كان من لقاء زوج خالته، وبما كان يظهر عليه من الحزن وحب الانتقام، فعجبت لورا وقالت: السيد محمد البواب أصبح فارساً مغواراً؟ هكذا تخلق الحوادث الرجال! وهنا قال نيكلسون لمحمود:

- أرايت اليوم كيف يخدع الممالك الشعب المصري الأعزل المسكين؟  
- كيف؟

- زعموا أولاً أن الجيش الفرنسي انهزم بعين شمس، وكان كل ذلك كذباً وزوراً، ثم إن نصوحاً باشا كان يخدع الناس اليوم، حينما أرسل المنادين في أرجاء البلد يصيحون بأن يوسف باشا الصدر الأعظم للدولة العثمانية، سيصل غداً أو بعد غد بجيشه اللهم، ليستأصل شاة الفرنسيين. والصدر الأعظم - كما أعلم علم اليقين - فرّ بجيشه إلى الصالحية ولن يعود.

- تبّاً لهم من قتلة سفاكين! الآن وقد لُعن الشعب لجامه، وأطارت الثورة عقله، وأصبح من العسير أن يكبح، ماذا ترى يا نيكلسون؟

- أرى أن العاقبة غير واضحة، وأنه يجب علينا ألا نجبن أو نعتزل القتال، فلعل الله يحدث بعد ذلك أمراً! وقالت لورا: لن يصح شعب يقتله طبيبه. وهؤلاء الممالك يبنون من جثث المصريين جسراً لمآربهم: يفرون من الميدان عند أول صيحة، فإذا انتصر المصريون تسارعوا إلى انتهاب الغنائم، وإذا هُزموا أو قُتلوا فليس الأمر عندهم بذى خطر. وما شأنهم بفراشات ضعيفة جاهلة تهافتت على النار فاحترقت؟ وزفر محمود، وهزّ نيكلسون رأسه، وقام كلٌّ إلى سريره لينام إن استطاع النوم.

وهكذا توالى الأيام والثورة مشتعلة الأوار، وفي كل يوم يضعف المجاهدون، ويقوى الفرنسيون، واستمرت المدافع تصب حميمها على المنازل ليلاً ونهاراً، فهجر الناس بيوتهم، وتهدم أكثر من نصف المدينة، وبذل المصريون جهد اليائسين: فأنشوا معملًا للبارود في بيت قائد آغا بالخرنفس، ومصنعاً لإصلاح الأسلحة وصب المدافع، وجمعوا كل ما استطاعوا الحصول عليه من حديد ونحاس وخشب، ولكن كل ذلك لم يُغن فتيلًا أمام قوة الفرنسيين الجبارة، ومما زاد الحال سوءاً حصار المدينة وامتناع وصول الأقوات إليها، فجاع الناس، وانتشرت الأمراض، وخرجت النساء مولولات صاحبات باكيات، يصوّرون الهزيمة والدعر، والمسغبة وضيفة الأمل.

وبينما كان الفرنسيون فى اليوم الثانى عشر من إبريل يحاولون احتلال كوم أبى الريش بالفجالة، بقيادة الجنرال روبان، إذ رأى محمود العسال زوج خالته فوق جواده وهو يصول بين الفرنسيين غير هَيَّاب، ورصاص بنادقهم يبنى فوقه ظلة من الموت، فذعر محمود وتقدم لإنقاذه، ولكنه قبل أن يصل إليه رآه يترنح فوق فرسه، وقد أصابته رصاصة فى العنق، فأسرع إليه فاخطفه من سرجه، وحمله فوق كتفيه. وما كاد يسير قليلاً حتى أصابته رصاصة فى فخذه، فسقط على الأرض بجِملِه. وفى هذه اللحظة وثب نيكلسون فجراً الرجلين إلى مكان أمين. وكان محمود شديد التألم من جُرحه، أما السيد محمد البواب فكان يجود بأنفاسٍ قصار، ويردد كلمات أقصر من أنفاسه ويقول: الحمد لله! قتلت خمسة هذا اليوم! شفيت نفسى، وأطفأت غلّى، ما أهون الحياة فى سبيل الشرف! ثم فاضت روحه شهيداً كريماً، فاكترى نيكلسون حمارين واتجه بالرجلين نحو داره، فلقيته لورا مدعورة، وجاء بعض الجيران فحملوا الجريح والقتيل، وكانت الشمس قد غابت فى الأفق، فشمل القاهرة ظلام دامس، يزعجه قصف المدافع، وندب الثكالى، وأنات الجرحى، وصياح الأطفال الخائفين الجائعين.

#### - ١٤ -

جَهَّز الميت الشهيد ودفن فى الصباح، وأخذت لورا تبذل ما استطاع فى علاج محمود وتمريضه، والهَمُّ يكاد يعصف بفؤادها. ودهمت محموداً الحمى ثلاثة أيام لم تغمض فيها جفنًا، ولم تحبس دمع عين. وأراد أبوها أن يتناوب معها السهر عليه، فأبت وقالت فى سخريّة مصنوعة: ما أكثر طمعكم أيها الرجال! لم تكتفوا بمنع المرأة من الجهاد فى ميدان القتال، حتى جئتم تشاركونها فى نصيبها القليل من العناية بالجرحى! دعنى يا أبى فإن للمرأة صبراً ليس للرجال. ثم ضحكت وقالت: وإن للمرأة قوة روحانية تبعث فى المريض الأمل وحب الحياة.

أفاق محمود من الحمى ضعيفاً هزياً، ورأى من رعاية لورا له وحدها عليه، وتفَرَّغها لخدمته، وافتنانها فى تسليته، والترويح عنه - ما ملأ قلبه حباً لها. وإعجاباً بخلقها. ثم نظر فرأى جمالاً يأخذ باللب، ويملأ العين والقلب، وقد كان إليها قبل ذلك دائم الحنين. ولم يكن يحول بينه وبين مصارحتها بحبه، إلا كبر موهوم، وعزيمة كاذبة،

هى أن يصون قلبه لحب زبيدة، وألا يزحمه بحب جديد.

ولكن أين زبيدة الآن؟ وأين الثريا من يد المتناول؟ إنها زوجة. إنه فقدوها إلى الأبد. إنها بعد أن تزوجت بالأجنبي أصبحت لا تصلح له ولا يصلح لها. وإن التشبث بحبها خيال شعري، لا يستطيع أن يثبت أمام قسوة الحقائق. . . جالت كل هذه الخواطر بنفس محمود وهو ينظر إلى لورا، وقد كانت تغسل جرحه وتعُدُّ له الأربطة واللفائف فقال:

- لقد أزعجتك يا لورا وأتعبتك.

- أنت دائماً رجل متعب يا محمود، وإذا أردت أن تريحنى فباعد بينك وبين الخطر.

- وهل يسوءك أن يدفع المرء عن وطنه؟

- لا. وهذا خير ما أحبه فيك، ولكن يسوءنى أن يمسك سوء.

- ولماذا؟

- هكذا أنت دائماً كالأطفال، تحب أن تعرف كل شيء.

- أتخافين على حقاً؟

- إننى أخاف دائماً على الأبطال.

- وتحبينهم يا لورا؟ فثارت عواطفها، وطفرت من عينيها دمعتان، وأسرعت فقالت:

وأحبهم.

- وإذا كانوا يحبونك يا لورا ويقدمون قلوبهم بين يديك، فهل تحبينهم حباً آخر؟!

- وهل الحب أنواع؟

- الحب أنواع وأشكال: حب الرجل للوطن، وحب الأم لولدها، وحب الجندي

لقائده، وحب الفتى للفتاة.

فتلعثمت لورا وقالت: وما شأنك بهذا الحب الأخير؟

- هو حبي لك يا لورا الذى فيه حياتى وشرفى، وفيه نعيمى وجنتى. ثم مدَّ إليها

ذراعيه وجلاً مستعظفاً، فسقطت بينهما باكية وهى تتمتم: أحبك يا محمود، وأحبك من

حين أن رأيتك ، وأحبك لأنى أرى فيك كل ما يصوره خيالى للرجل الكامل ، من بطولة  
وكرم ودين . أحبك ، أحبك .

فقبلها محمود بين عينيها وقال وهو يلهث : وهل تقبلينى زوجاً؟  
- ذلك كان أملى فى الحياة .

ثم أخذنا فى الحديث والضحك والقُبْل ، وبعد قليل دخل نيكلسون يسأل عن  
المريض ، فصاحت لورا : إحذر يا أبى أن تزجج زوجى بكثرة الأسئلة ! فبهت نيكلسون  
وأخذ يتأمل فيهما مشدوهاً ، وهما يضحكان . فقال محمود : نعم زوجها بكتاب الله وسنة  
رسوله . ووثب نيكلسون على لورا يقبلها ويقول : لك تهنئاتى ودعواتى يا لورا . نعم  
الصهر ونعم الكفء محمود . هذا أسعد يوم فى حياتى . كان هذا الخاطر السعيد يطوف  
بخيالى فأظنه بعيداً ، وكنت أعتقد أن ابنتى لورا لا تصلح إلا لمحمود .

ثم اتجه نحو كرسي ليجلس عليه ، فصاح به محمود : لا تجلس يا رجل ! الآن تجد  
جارنا الشيخ محمداً الصعيدى فى داره ، وتستطيع أن تتفضل بدعوته ليعقد العقد . فخرج  
نيكلسون غير متباطئ وأحضر الشيخ الصعيدى وتمّ العقد ، وأصبح محمود العسال ولورا  
نيكلسون زوجاً وزوجة .

ومضى على الثورة ثلاثون يوماً ، وهى تحصد الأرواح حصداً ، وتدمر كل شئ  
تدميراً . ولما اشتد الخطب ، وعظم الهول ، وبلغت القلوب الحناجر ، قام وفد من العلماء  
والحّ على ناصف باشا وإبراهيم بك وغيرهما أن يضعوا حداً لهذه الفاجعة . وتمّ إبرام  
الاتفاق بين الترك والفرنسيين فى الحادى والعشرين من إبريل سنة ١٨٠٠ م على أن يغادر  
العثمانيون مصر ، وعلى أن يصدر كليبر عفواً عاماً عن جميع سكان القاهرة . وعاد النفوذ  
للفرنسيين كما كان وزادهم الظفر تمكناً وسلطاناً .

وفى هذه الأثناء تماثل محمود وعادت إليه قوته ، وبينما كان فى منزله فى أحد  
الأيام ، إذ سمع طرقاتاً على بابه ، فلما فتح رأى سروراً خادماً زبيدة فدهش لرؤيته ، واستقبله  
استقبال الصديق ، وشدّ على يديه فى شوق وترحيب وقال : أهلاً بسرور . ما كنت أترقب أن  
أراك بالقاهرة ! كيف حال أهل رشيد؟ ثم تردد قليلاً وقال : وكيف حال بنت خالتى زبيدة؟  
- كلنا بخير يا سيدى والحمد لله على سلامتك . لقد انتقل الجنرال مينو من رشيد وعين

حاكماً للقاهرة، وجئنا منذ عشرة أيام، وجاءت معنا سيدتى نفيسة، وسكننا بالقلعة. وقد أحبت سيدتى زبيدة وسيدتى نفيسة أن تريك، فسالنا عن منزلك وجئنا، وهما الآن بالحارة تنتظران.

فلما سمع محمود ذلك أسرع إلى الباب وثباً، وحينما وصل إلى الحارة رأى زبيدة وأمها، فحياهما فى تكريم وحفاوة وشوق، وقادهما إلى مسكنه. وأقبلت لورا فمدت ذراعيها لزبيدة وملأت وجهها بالقبّل، ثم مالت إلى يد السيدة نفيسة فقبلتها وقالت: من كان يظن أن يجمع الله الشئتين بعد أن حالت بينهما الخطوب والأحداث؟ فالحمد لله على السلامة يا زبيدة، شرفت يا سيدتى نفيسة. لقد أراد الله بكما خيراً أن كنتما بعيدتين عن القاهرة فى أثناء الثورة. لقد قضينا ثلاثين يوماً كنا نموت فيها ونحيا فى كل يوم ألف مرة. فقالت زبيدة فى ضجر وألم: وهل نجت رشيد من الثورة؟ إن جميع البلاد المصرية كانت شعلة من النيران. فاشارت لورا إلى محمود وقالت: لقد كدنا نفقد فى الثورة هذا الولد المدلل المخاطر. فنظرت إليه زبيدة، والشوق إليه يكاد يفضحها، وقالت: لقد خلّق محمود جريئاً لا يبالي بالأخطار، ولا بد له من يد حكيمة حازمة تكبح جماحه. فضحك محمود وقال: إنى سأتعبد يدك كثيراً يا لورا، لأننى فرس جموح. فهال زبيدة ما تسمع، وراعها أن ترى تلك السهولة فى الحديث بين لورا ومحمود وقالت: أظن أن يجدر بك يا محمود أن تذهب إلى رشيد بعد هذه الغربة الطويلة والجهد الممض، فإن أمك تتحرّق لرؤيتك.

فأجابت لورا: إنه أقسم ألا نعود إلى رشيد إلا بعد أن يغادر الفرنسيون أرض مصر. فقالت نفيسة: اتنين العودة إلى رشيد يا لورا؟ فأطرقت لورا فى حياء وقالت: أنا سأكون دائماً حيث يكون محمود. وهنا أسرع محمود فقال: لقد نسيت أن أخبركما أننا أصبحنا زوجين، فقالت نفيسة وقد دهمها الخبر: مبارك. مبارك. أرجو أن يكون زواجاً سعيداً. ثم تنهدت وبلعت ريقها، واحتالت على ابتسامة خفيفة تخفى بها ما أصابها من ألم وحسرة. أما زبيدة: فقد أخذتها عاصفة من الدهول والحزن والغيرة، فأطرقت واجمة كأنها كانت تسمع صحيفة الحكم عليها بالموت، إنها تحب ابن خالتها حباً يقهر كل حب، ونهيم به هيأماً يعصف بكل هيام، وهو لها دون غيرها، وهو تمثال غرامها الطاهر، فكيف تمتد إليه يد؟ وكيف تجرؤ امرأة أخرى على أن تنعم بحبه؟ ولكنها هى التى نبذت هذا

الحب، وأغلقت بابها دون ذلك الهيام، وحطمت ذلك التمثال بيديها، كل ذلك فى سبيل أمل موهوم وأمنية كاذبة . . . إن لورا لم تعمل شيئاً، وإن محموداً لم يعمل شيئاً، وهى وحدها التى نفسها تلوم. هى وحدها التى دمرت سعادتها، وهى وحدها التى انتزعت قلبها من صدرها وقذفت به فى التراب.

رفعت زبيدة رأسها بعد لحظات وقالت: مبارك يا محمود. ثم أخذت تخوض فى حديث آخر فقالت: إننا جئنا إلى القاهرة وأحبينا أن نراك فأرشدنا ابن عمك حسين إلى منزلك، فقد كنا نود أن نراك يا محمود. وهنا قالت نفيسة: إن زوجها الجنرال لا يقبل زيارة أحد من أقاربها. فقال محمود: إن كل سعادتنا أن نعلم أن زبيدة هائشة سعيدة. فقالت زبيدة: أما السعادة والهناء فبينى وبينهما سدود وأسوار، ولكنى راضية بالقضاء خيرته وشره. وقد علمتني الأيام ألا أجرؤ على تغيير القدر، وألا أفسد حياتي بآرائى وآمالى. وهنا تنهدت نفيسة طويلاً وقالت: هل عثرت يا محمود على مكان خالك؟ فأطرق ملياً وانساب الدمع من عينيه غزيراً وقال: أعظم الله أجرك فيه يا خالتي، فقد نال شرف الشهادة، ومات فى ميدان الجهاد شجاعاً كريماً، وانتقل إلى جوار ربه راضياً مرضياً. وما كاد يتم قوله حتى ارتفع البكاء والعيول، وكادت نفيسة يغمى عليها من هول الخبر، وأخذت زبيدة تبكى وتعدد مآثر أبيها ونبله وشرفه، وتصيح كما يصيح الهاذى المحموم: إنه مات من أجلى. . . إنه مات من أجلى. لقد قتلته. . . لقد قتلته! ولما هدأت الأصوات قليلاً رفعت نفيسة رأسها وقالت: هلم يا زبيدة. إن المرء لا يستطيع أن يمحو ما كتبه القدر. هلم يا بنتى. إننا لا نملك من أمرنا شيئاً، وليس لنا إلا الصبر، وقد يكون ما نحن فيه اليوم خيراً مما نلاقيه غداً. ثم ودعت لورا ومحموداً وانصرفت.

## - ١٥ -

فى اليوم الثانى والعشرين من إبريل سنة ١٨٠٠ م استيقظت القاهرة على موكب حافل. أراد به كليبر أن يظهر عظمة ملكه وقوة بطشه، وأن يحتفل بالنصر المؤزر الحاسم.

فخرج من داره بالأزبكية فى جمع خضّم من مشاته وفرسانه، وقد انتضوا سيوفهم فكان لها بريق يكاد يذهب بالأبصار، وخفقت فوقهم رايات الجمهورية يداعبها نسيم الربيع، وجرت أمامهم المدافع الثقيلة التى تركت القاهرة ركاماً، وخلفت قصورها

أطلالاً . وقد سار في طليعة الموكب نحو خمسمائة قوَّاس في أيديهم العصى الغليظة ، ينادون بأصوات تكاد تنقب آذان السماء ، كلها حمد وتمجيد للقائد العظيم ، ويأمرون الناس بالقيام وحني الرؤوس . وموسيقى الجيش تصدح بالأناشيد الفرنسية ، وكان الجنرال يمتطي جواداً أشهب عربي السلالة ، وقد بدا في وجهه العبوس والأنفة ، وامتلات خياشيمه عظمة واعتداداً .

سار الموكب يشق أحياء المدينة وأسواقها ، فاخفتى الناس - وقد أكدمهم الحزن - في بيوتهم ، وسدوا أبوابهم دون هذا المشهد الذي عدَّوه احتفاء بموتهم ، والمصريون بغريزتهم وفي كل أطوار تاريخهم يحبون الطبل والزمر ، ويتزاحمون على المواكب كيفما كانت ، ولكنهم في هذه المرة عزفوا في إباء عن أن ينقلوا في هذا الموكب قدماً ، أو يمدوا إليه عيناً .

في هذا اليوم نفسه - والجنرال في قمة مجده - كان يجلس بفناء المسجد الأقصى بمدينة القدس ، شاب في الرابعة والعشرين ، نحيل الجسم شاحب اللون ، حائر العينين مستطيل الوجه ، أنافى ، رث الثياب ، يكثر من هز رأسه في حزن واضطراب . كان طالب علم ، وكان فقير الحال ، وكان عصبى المزاج كثير التأمل والتفكير . وكان موغلاً في دينه ، حريصاً على إحياء السنن وإماتة البدع ومحاربة المنكر ، وإن لاقى في سبيل ذلك أشد الجنف . وكثيراً ما كان يدخل الحانات فيحطم زجاجها ويريق خمورها ، غير مهال بما يصيبه من أذى ، أو يناله من مكروه .

جلس هذا الطالب مفكراً حزناً ، فمرَّ بخياله صلاح الدين بن أيوب وجهاده وبلاؤه في محاربة الصليبيين ، وخطرله أنه لولا هذا الكردي ، ولولا عزائمه التي كانت أقوى من جيوشه ، ما سُمع للأذان صوت في هذه النواحي ، وما استطاع هو أن يجلس كما يجلس الآن في فناء هذا المسجد الذي بارك الله حوله ، فكان مثابة الرسل ومهبط الرحمات . وبينما كانت هذه الخواطر تتوالت إلى نفسه ، رمى ببصره فرأى طائفة من الجنود العثمانية تتجه إلى مسجد الصخرة ، وقد نهكهم التعب ، وأكلهم السغب ، وتمزقت ثيابهم وجللها الغبار ، فهاله أن يرى جنود الإسلام على تلك الحال من المسبغة والمهانة ، وحز في قلبه أن يثول أمر حماة الدين الذي يقول قرآنه : ﴿ هُؤَاعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل تُرهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ - إلى ذلك الخور والصغار . رأى تلك الطائفة من

الجنود فقام يسعى إليهم ، وما كاد يقترب منهم قليلاً حتى رأى بينهم ضابطاً كان يعرفه بحلب ، هو أحمد أغا . فحيّاه فى شوق وحفاوة ، ثم قال : يبدو عليك وعلى أصحابك يا سيدى أنكم قدمتم من سفر طويل .

- لم يكن السفر طويلاً يا سليمان ، ولكن . . . ثم لوى وجهه فى ألم واستخذاء كأنه يريد أن يحجب ما قد يبدو عليه من دلائل الضعف النفسى .

- وماذا وراء (لكن) هذه؟

- وراءها الخزى والهزيمة .

فبادره سليمان سائلاً :

- كيف ؟!

- هلم يا صاحبي نجلس إلى جانب هذا الجدار ، فقد يطول بنا الحديث ، وكان النهار شديد القيلظ ، مختنق أنفاس النسيم ، استظلت فيه بومة بشجرة زيتون ، وأخذت تنعب وتولول ، كأنما كانت تبكى ملك سليمان ، وبعد أن جلسا قال أحمد أغا :

خبرنى أولاً عن شأنك أنت ، فإن آخر عهدى بك كان بمدينة حلب منذ أربع سنين .

- نعم كان ذلك منذ أربع سنين ، ولن أنسى كريم عنايتك بأبى وحدبك عليه ، ومنذ ذلك الحين نزع نفسي إلى أن أكون جندياً ، وكان الجهاد فى سبيل الله أقصى ما تهفو إليه آمالى ، وزادتنى قراءة سير أبطال الإسلام شغفاً بلقاء الموت ، وكانت تتناوب خيالى صور رائعة للمجد الذى ينتظرنى ، حتى كدت أجن جنوناً . فطالما أيقظتنى من غفوتى أصوات الجماهير ، وهى تصيح : الله أكبر ! الله أكبر ! لقد أنقذ سليمان الحلبي الإسلام من أعدائه ، وروى سيفه من دماهم ! فكنت إذا دهمتى هذه النوبة ، أجلس فى ظلام الليل الدامس حزيناً باكياً ، أتلفت فلا أجد سيفاً ولا رمحاً ، وأتسمع فلا أسمع إلا سكون الليل وهدهوه . والسكون صوت موحش ، هو صوت الموت والفناء . ثم أحاول أن أهز ذراعى لأستأنس بما قد يكون بهما من قوة على الجهاد ، فلا أهز إلا ذراعين ناحلتين ، لا تقويان على قتل ذبابة ، فيزيد بكائى ويطول أنينى ، وكثيراً ما كان يستيقظ أبى ، وتستيقظ أمى ، فيسرعان نحوى مذعورين واجفين ، وما كان أشد حنان كفّ أمى ، وهى تمسح على رأسى وجهتى ، وتتمتم بآيات من القرآن مبدلة ملحونة ، لتطرد عنى الجن والشياطين ، حتى إذا زاد ما بى ،

وطال الأمر علىّ، وخفت أن أوصم بالجنون، ذهبت إلى إبراهيم باشا وإلى حلب.

- ويل له من ظالم غاشم !!

- دعك من هذا فلسنا الآن بصدد الحديث عن الناس، فإن الناس أضغاث بجانب  
إنهاض الدين وإعادة الإسلام إلى سابق مجده. ذهبت إليه في قصره، فسخرت في نفسي  
مما رأيت من جنود وأعوان، وخدم وخيصة، وأبهة كاذبة وعظمة جوفاء، يعرف هؤلاء  
الأترك كيف يصطنعونها بإطالة الشوارب وكثرة ما ينتطقون به من خناجر، ويتكبرونه من  
بنادق. وبذلك الصوت الخشن المفزع، الذي يظنون أنه يغنى عن جُراة القلوب وصدق  
العزائم، فلما حاولت أن أجاوز الباب تواب على الحراس والأجناد من كل مكان في عجب  
ودهشة، وانطلقت السيوف من أعمادها، وركض الفرسان من مواقفهم، وأقسم لو أنهم  
دُعوا ليوم كريمة، ما كانت لهم هذه الوثبات ولا تلك الحماسة المتأججة. نظروا إلى  
مشدوهين، كيف جرؤت؟ وكيف جال بنفس بعوضة مثلى أن تخترق هذا الحصن المنيع  
والحرم الحرام؟ وكيف يصح لفتى فقير ممزق الثياب من أبناء العرب، أن يتحدث ذلك  
لملك الذي لا ينال، ويطأ بقدميه فناء تلك العظمة الشماء؟ وقفت أنظر في وجوههم،  
في لمحات وجهى شيء غير قليل من السخرية، فصاح بي كبيرهم قائلاً في اشمئزاز: ماذا  
تبغى يا عربى؟ قلت: أريد أن أقابل الوالى. فابتسم في صلف وقال: أنت تقابل  
الوالى؟ قلت: نعم. قال: ألا تدري أن ذلك ممنوع؟ قلت: الذى أعرفه أنه الوالى،  
وأنه يجب عليه أن يقابل من هم في ولايته. قال: وماذا تريد منه؟ قلت: ذلك ما أوتر أن  
أحدثه به بنفسى.

وكان الباشا حينما سمع ضجيج الحراس أطلّ من نافذة غرفته، وسأل عن الخبر،  
فلما علم بأمرى دعانى إليه، وقابلنى عابساً، ثم قال بصوت يشبه الزجر: ماذا تريد يا  
فتى؟ قلت: أريد أن ألحق بالجندي لأجاهد في سبيل الله، فضحك حتى سقطت عمامته،  
وجلس بعد أن كان قائماً. ولما التقط أنفاسه، قال في رفق يعتمده الناس عند مخاطبة  
المجانين: تريد أن تجاهد في سبيل الله؟ آه.. آه.. قلت لى.. هذا شيء عظيم! وأنا يا  
بنى أريد أن أطير الآن إلى زوجتى وأولادى بإستانبول، وأريد أن أضعك في عُلبة  
«النشوق» هذه، وأسدّ فتحتها بالرصاص والحديد، حتى لا أسمع منك هذا الهذرا أنت  
رجل لو نفخت فيه الآن نفخة لطار إلى الغرفة التى أمامى، من الذى وضع في رأسك فكرة

الجهاد هذه؟ الجهاد يا بنى منزلة لا ينال شرفها إلا الرجل القوى الضخم ذو المتن الأزلى والساعد المفتول، ولو فتحنا باب الجهاد لأمثالك لأنشأنا جيشاً جراراً للهزيمة والعار، تتزاحم فيه النساء قبل الرجال. ماذا بك بالله؟ وماذا فيك للجندي؟ ذلك الجسم النحيل الشاحب المتلوى، وهاتان العينان الزائفتان، وذلك الصدر الذى هو أصغر من أفصوص القطاة؟ لعلك تخيلت نفسك وأنت فى زي الجندي رشيقاً فتناً تتسابق إليك الفتيات وتجذب نظراتك الغانيات لا يا فتى! لقد كذبتك نفسك. لن تكون فى ثياب الجند إلا مثار ضحك القيان، وسخرية الصبيان.

قال كل ذلك وأنا واجم مفكر، وقد تطلعت لأجد حولي خنجراً أغمده فى صدره لاستريح من زهوه وعتوه، فلم أجد. ثم رفعت رأسى إليه فى كبر واعتداد وقلت: هوّن عليك يا سيدى. إن ميدان الجهاد أوسع من ميدان القتال، وسأختار الميدان الأول والله فى كل ذلك شأن هو مقدرة.

- وماذا فعلت بعد ذلك؟

- خرجت من عنده، وعزمت وأنا فى الطريق على أن أتجرد لدراسة علوم التصوف والتاريخ، لأستبين منها خير سبيل للجهاد. فذهبت إلى أبى، وطلبت منه أن يعيننى على الدراسة بالجامع الأزهر، فزودنى بما أردت وذهبت إلى مصر، وقضيت بالأزهر ثلاث سنوات، قرأت فيها على كثير من علمائه. ولما دخل الفرنسيون مصر، ورأيتهم يصّبون على الأزهر حاصباً من قذائفهم، تحركت فى نفسى عوامل الانتقام وعزمت على أن أقتل كبيرهم «بونابارت» ولكنى جهنت، واجتذب الشيطان السكين من يمينى فلم أجدلى عزماً، وعندئذ غادرت مصر وأقمت بالقدس حيث تجدنى. والآن حدثنى عن نفسك، فقد علمت طويّة أمرى.

فزفر أحمد أغا وقال: إن حديثى لن يطول وإن كان ألقى طويلاً: قمنا من غزّة لغزو الفرنسيين بمصر بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضياء، وحاصرنا قلعة (العرش) حتى استولينا عليها بعد جهد، وعندئذ شرع الفرنسيون يفاوضوننا فى الصلح على أن ينزحوا عن البلاد. وسمعت من بعض الضباط أن المعاهدة تمت وأنها وقّع عليها منا ومنهم، ولكنى علمت بعد ذلك أن الإنجليز لم يرضوا عن هذه المعاهدة، وأن سارى عسكر كليبر استأنف القتال. فالتقى بجيشنا عند عين شمس، فانهار الجيش أمامه كما ينهار الطفل البالى،

وتقهقرنا إلى بلبس، ثم إلى الصالحية. وتفرق جنودنا بدءاً، وهاموا على وجوههم في الصحراء أذلاء مهزومين حتى وصلت اليوم مع طائفة منهم إلى القدس.

- وانتصر الفرنسيون وعادوا إلى ملك مصر كما كانوا؟!

- نعم واحسرتاه!!

- وكان إبراهيم باشا والى حلب يسخر منى ومن ضالة جسمى؟ فماذا يقول اليوم في جنوده الأشداء؟!

- حقاً إنه كان مخطئاً. إن النفوس هي التي تحارب لا الأجسام.

- لقد أصبحت أعتقد أن سيوف الترك أضعف من أن تنال من الفرنسيين مثلاً، لأننى علمت أنهم يحاربون بأساليب جديدة وبآلات جديدة.

وهنا جلس أحمد آغا على ركبتيه وقال: سليمان! ألا تستطيع أن تعمل عملاً عجز عنه الجيش؟!

- هذه هي آمالى منذ سنوات، ولكن النفس الإنسانية تتبلد باليأس وتثبط العزائم.

- إن نفسك فوق النفوس، وهي أبعد من أن تنالها يد اليأس. لقد قرأت كثيراً في سير الأبطال، وتشوقت كثيراً إلى كأس الشهداء وما أعد الله لهم من نعيم مقيم. ما هذا يا رجل؟ إن الإسلام يدعوك لنصرته، وإذا ضاعت مصر ضاع الحجاز وانقطع السبيل إلى بيت الله، وضريح رسول الله.

- آه يا أحمد!! إن مما يؤلم حقاً أن تُريد فلا تقدر. إن نفسى تريد، ويدي لا تقوى.

وهنا خاف أحمد أن تغلت الفريسة من يديه، فاتخذ منهمجاً آخر في الإغراء وقال: ألعلك تخاف الموت؟ ما كنت أظن أن للخوف عليك سلطاناً، ولكنى أرى اليوم أن الضعف الإنسانى لم يجاوزك. ما هذا؟! أين تلك النفس الوثابة، وأين التهافت على الجهاد، وأين تلك التفحات الربانية؟! لقد عاد الضياء ظلاماً، والعزم أوهاماً، والسيف الصارم كهاماً!! وأصبحت مخلوقاً أرضياً حقيراً، بعد أن كنت تسبح في سماء كلها إشراق ونور. وقد كنا نرفع إليك الرءوس لنراك فأصبحنا نطأطئها لنبحث عن مكانك في الحضيض.

- أنا لست فى الحضيض وإن التصق به جسدى الفانى .

- جسدك الفانى فيه روحك الباقية ، فإذا رفعته ارتفع . لقد كنتُ أفخر بمثلك ، وكان الدين يستعدّ لشدائده بمثلك ، والناس يدعون فى صلواتهم أن يقبض الله لهم رجلاً مثلك لكشف الضرّ عنهم . وحينما قرأتُ فى بعض الكتب أن بعض الأولياء قال للشيخ كمال الدين الدميرى : إنه سمع قائلاً يقول : إن الله يبعث على رأس كل مائة لهذه الأمة من يجلّد لها دينها - لم أشك فى أنك بطل هذه المائة ، وأنتك ستعيد الإسلام إلى جدّته ونصارته .

فتألقت عينا سليمان ، وتجمعت أسارير وجهه وتقبضت شفتاه شأن العازم المصمم وقال : وماذا أعمل يا أحمد؟!

- تأخذ هذا الكيس وفيه مائة محبوب ذهباً ، وتذهب اليوم إلى ياسين آغا حاكم غزّة ، ليذل لك سبيل السفر إلى مصر .

ثم أخرج خنجره من منطقتة وقال : وإذا بلغت مصر فأغمد هذا الخنجر فى صدر كليبر قائد الجيش الفرنسى .

فقدف سليمان بالكيس فى وجه صاحبه ، وقال وهو ينتفض : إن المجاهد فى سبيل الله لا يحتاج إلى مال . حسبى هذا الخنجر وسأهزّ به الدنيا هزّاً ، وسأترك فيها دويّاً .

سافر سليمان الحلبى إلى غزّة ، وبقي بها أياماً ينتظر قيام قافلة للتجارة تقصد إلى مصر ، حتى إذا قامت صحبها ، فبلغ القاهرة بعد ستة أيام . وكان ذلك فى اليوم الرابع عشر من مايو ، وكان يعرف القاهرة من قبل ، ويعرف طرقها المعوجة وحاراتها الضيقة : فحمل خُرْجَه واتجه صوب الأزهر ليقیم برواق الشاميين ، وقضى وقتاً وهو يحضر الدروس ، ويعيش من نسخ الكتب . وكانت الفكرة تتأبه كما تتأب الحمى صريعها فينتفض انتفاضاً ، ويمس خنجره الذى أخفاه فى طيات ثيابه ، ويهمُّ بإنفاذ خطته ، ولكنه يعود فيقعده الخور ، وتصدّه النفس المطبوعة على حب الحياة .

وهكذا بقى ريشة فى مهبّ العواصف ، وكرة تتقاذف بها العواطف ، فكان بين إقدام وإحجام ، وثورة وخمود ، وشجاعة وجبن ، «وبعض الحجا داع إلى البخل والجبن» . ولما ضاق بالأمر صدره أفشى بعض سرّه إلى بعض الطلبة من أصدقائه ، وهم : محمد الغزى ، وأحمد الوالى ، وعبدالله الغزى ، وعبد القادر الغزى - فسخروا منه ، وهزءوا به ،

ورموه بالجنون . وقال له عبدالله الغزى : إنك يا سيدى البطل المغوار أعجز من أن تقتل ذلك الفار الذى يزعمنا فى كل ليلة بالوثوب على وجوهنا ! فزاد ذلك من غيظه وحفزه على التصميم . فخرج فى صباح اليوم الثالث عشر من شهر يونية إلى الجيزة ، يمشى مطرق الرأس مذعوراً ، كما يمشى الكلب المسعور ، باحثاً عن كليبر فى كل مكان كما يبحث الصائد عن طريدته . فعلم بعد طول التساءل من نوائى سفينته ، أنه يتمشى فى كل مساء فى حديقة قصره بالأزبكية . فرجع إلى القاهرة وكان قد أظله الليل ، فحاول أن يصل إلى حديقة القصر فلم يستطع ، ففضى ليلته فى مسجد قريب . ولما أصبح تتبع خطوات الجنرال وسار فى إثره إلى «الروضة» ، ثم عاد خلفه إلى القاهرة ، واستطاع التسلل إلى الحديقة فكمن فيها خلف ساقيه . وكم جال بخياله فى هذه اللحظة من صور : جال بخياله سخرية والى حلب به ، وجال بخياله ما فعل الفرنسيون بيافا ، وجال بخياله أن الملائكة يستعدون الليلة للقائه فى جنة الخلد بين المجاهدين والشهداء ، وجال بخياله أن ذلك الخنجر الذى ترتعش به يده ، سينقل أمة كاملة من ويلات الدل والاسترقاق ، ثم جال بخياله أن اسم سليمان الحلبي المغمور المجهول ، سيجلجل فى الأفاق ويدونه التاريخ بين أسماء أبطاله الأمجاد . وهنا أغمض عينيه وتشهد ، وأخذ يتلو آيات من القرآن فى الجهاد وفى ثواب المجاهدين ، وما كاد يفتح عينيه حتى دخل كليبر ومسيو «بروتان» المهندس - الحديقة ، فنهض سليمان واقترب من الجنرال فى ذل متصنع ، فظنه مستجدياً فلم يأبه له ، ولكن سليمان وثب عليه كما يشب النمر الجائع ، وطعنه بخنجره طعنة قاتلة فسقط مضرجاً بدمائه . وهمّ مسيو بروتان أن يتعقب القاتل ، فلما أمسك به طعنه سليمان ست طعنات ، نحرَ بعدها لليدين والفم ، ثم عاد إلى كليبر فطعنه ثلاث طعنات ليقتضى على آخر مُسكة من حياته ، ولم تحدّثه نفسه بالفرار . ولكن غريزة حب البقاء دفعته إلى جدار فى الحديقة فاخفى عنده ، وجاء الحراس فأروا قائدهم وقد أسلم الروح ، فهاهم الأمر وتملكهم الجزع ، وأقسموا على الانتقام من مصر وأهلها ، وأن يدكوا أركانها دكاً . ونفخوا فى أبواقهم ليجمعوا شتات الجنود المنتشرين بالقاهرة ، واهتزّت أرجاء المدينة ورُزّلت للحادث الجلل .

- ١٦ -

كانت القاهرة يلفها غبش الظلام ، حينما انطلق جنود الفرنسيين فى أنحائها غاضبين مهتدين بمحو القاهرة من صحيفة الوجود . وقد تسابقوا إلى القلاع والتلال ، وصوبوا

مدافعهم نحو المدينة المسكينة، واعتزموا أن يجعلوها نسفاً، وألا يبقوا بها نفساً. ووصل الخبر المشثوم إلى السكان المنكوبين فهُرَعُوا إلى ديارهم ليفرّوا من الموت إلى الموت، وعلا الضجيج، وصاح النساء من نوافذ المنازل مولولات ناعيات، وبكى الأطفال مفزوعين لهذا الهول العظيم، وتذكر الناس ما أصابهم في الثورة القريبة العهد من فواح فأخذتهم الرجفة، وانطلقوا في الطريق يصيحون: يا لطيف... يا لطيف!!  
وكان نيكلسون ومحمود بقهوة بخطة سيدنا الحسين، فلما وصل إليهما الخبر بهتا وأخذهما أول الأمر ما يشبه الذهول، ثم قال نيكلسون:

- من يكون القاتل يا ترى؟

- يكون من يكون، فلن تُفلت مصر من أكبر نكبة في تاريخها. وتكون النازلة أعظم إذا لم يعثروا على القاتل.

- ويل للقاهرة ثم ويل لها! لقد أصبحت منذ دخل الفرنسيون غرضاً لا تخطئه السهام. هلم بنا إلى الدار فقد تركنا بها لورا وحيدة، وأخاف أن يمسخها سوء.

وبينما هما في الطريق قابلهما السيد أحمد المحروقي، وصاح بهما: لقد وجدوا القاتل. فعالجه نيكلسون قائلاً: وأين وجدوه؟

- الحق أنه هو الذي أوجد نفسه، فإنه - كما يبدو لي - لم يحاول الفرار، ولم يغادر حديقة القصر. وقد علمت أنه طالب علم حليّ، والفرنسيون يعتقدون أن وراء الأكمة ما وراءها.

فقال محمود: غداً يتبلج الصبح لدى عينيّن، إن القاهرة في هذه الليلة لن تنام، وكيف تنام من تنصب له أشراك الحمام؟!

ثم انطلقا حتى بلغا دارهما، فوجدا لورا لدى الباب والهة حزينة، حتى إذا رأت محموداً سقطت بين ذراعيه، وأخذت تبكي وتضحك في آن. ثم اتجهت إلى أبيها وقالت: لقد قتلني طول انتظاركما في هذه الليلة الليلية، وقد أصمّت صفارات الفرنسيين أذنّي وهم يجوسون خلال الطرق في شبه جنون محمود. هل قتل كليبر حقاً؟

فقال محمود: نعم قتل حقاً، وهو فيما اعتقد آخر ركن للفرنسيين بمصر. قتله شاب حليّ فدائي فيما يظهر، وإنى أمقت الوسيلة وإن ارتحت إلى الغاية.

- حسنأً يا محمود؁ وإن كان بعض الناس يرى أن الغاية تبرأ الوسيلة .

فقال نيكلسون : هذا رأى فائل شديد الخطر؁ لو أخذ به لهدمت الأخلاق جميعاً؁ ولتحول الناس إلى ذئاب وثعالب؁ إن الغدر ليس من الشجاعة فى شأء؁ وإن من الرجولة أن يجبه الرجل خصمه فى نزال شريف؁ لا أن يكمن له كما تكمن الصيلا .

فقال لورا : هذا صحيح يا أبى؁ ولكنى أظن أن الأمر يختلف إذا اختلف الخصمان فى القوة؁ تصوّر يا أبى عدوّاً يسلأ عليك السيف وأنت أعزل حتى تخضع له مرغماً مقهوراً؁ ثم يأخذك بأساليب الإذلال والقسوة؁ أليس من حقك فى هذا الحين أن تكيد له؁ وأن تثب عليه فى الظلام؟ هؤلاء الفرنسيون غزوا بنى مصر بسلاح جديد؁ وأذلّوهم بالمدافع الحديثة الابتكار . وقد كان قصارى ما يعرفه المصريون من الحرب؁ أن يجول الفارس من الممالك بفرسه مزهوّاً متحدياً؁ ثم يثب على خصومه ليجالدهم بالسيف؁ فهل من العدل أن نصمهم بالخيانة والغدر؁ إذا هبّ أحدهم من وراء جدار فأغمد خنجره فى ظهر خصمه العنيف الجبار؟ ليس للأخلاق يا أبى ميزان واحد؁ لأنها تختلف باختلاف الأحوال والأزمان والحوادث . فالعمل الشريف فى حال؁ قد يكون ذنباً فى أخرى؁ وإنما هو العقل الحكيم الذى يقدر الأمور ويحكم على الأحوال .

فقال نيكلسون : لم نتمتع بسماع فلسفتك منذ عهد بعيد يا لورا؁ ولكنى أعتقد أن القتل الشريف لا يكون إلا فى القصاص؁ وفى ميدان القتال .

- إن مصر لم تكن منذ دخلها الفرنسيون إلا ميدان قتال؁ وهذا الشاب الحلبي قتل كليبر فى ميدان القتال . فقال محمود :

إنه قتله غدراً . فقلت لورا : وأكثر القتل فى الميدان لا يكون إلا غدراً . إن الفارس يتحين غفلة من صاحبه فيفجؤه بالطعنة . أسمعت فارساً يقول لخصمه : خذ جدرك يا صاحبي لأنى سأضربك فى جنبك الأيسر؟ ما هذا الكلام يا محمود؟ إن الحدود بين الأخلاق مائعة متموجة . فقال أبوها : أنت تحكّمين العقل يا لورا؁ ونحن نحكّم ضمير .

- ما الضمير؟ كلمة جديدة أخرى من الكلمات التى ابتدعوها؁ لوطلبت من «سقراط» تحديدها ما استطاع . هذا ضميره يؤنبه لأنه قبض على قاتل وساقه إلى القضاء؁ وهذا ضميره يؤنبه لأنه لم يقبض عليه؁ وهذا ضميره يخزه لأنه ضرب ابنه وعنف عليه؁ وهذا ضميره

يخزّه لأنه لم يضربه . ما هذه الفوضى وما هذا الارتباك الخلقى ؟ وأظن أنني سمعت منك يا أبى ، أن القضاء الإنجليزي لا يُصدر أحكامه عن قانون مدوّن ، وإنما يحكم القاضى فى كل مسألة على حسب الأحوال المحيطة بها ، ذلك لأن لكل حال حكماً . فقال نيكلسون : هوئى عليك يا بنيتى ، ودعينا - كما يقول الإنجليزي - نتفق على أن نختلف ، أتعطين أن الفرنسيين سيصّبون نقيمتهم على البلد ؟

- ما أظن بعد أن قبض على القاتل وتبين أنه حلبى .

وقال محمود : أخشى أن يجرّهم البحث إلى تتبع المتآمرين الذين كانوا يغشّون بيت الشيخ السادات ، وحيثلو فعلى وعلى نيكلسون وعلى السيد عمر مكرم ، والسيد المحروقى - السلام . فقال نيكلسون : لا يا محمود إننا كنا نتأمر على إخراجهم من البلد لا على قتلهم غيلة . الذى أظنه أن موجة العذاب ستزحف على الأزهر ، لأن القاتل كان أحد طلابه . ثم دلفوا إلى مضاجعهم ، والقاهرة ساهدة ناصبة . ومرّ يومان ثم فيهما تحقيق الحادث الجلل ، وحُكم على سليمان الحلبى بقطع يمينه التى صوّت الخنجر إلى صدر القائد العظيم ، وبصلبه فوق مَحْزَق وترك جسمه لجوارح الطير تتخطفه ، وبقتل الطلبة الأربعة الذين أفضى إليهم سره . ثم احتفل الفرنسيون بجنازة المقتول احتفالاً ضخماً ، ودفنوه بحديقة قصر العينى .

وحينما قُتِلَ كبير ، أطلّ الجنرال مينو برأسه من الغمرة التى كان فيها ووثب إلى قيادة الجيوش الفرنسية ، وأصبح حاكم مصر المطلق ، لا لموهبة ممتازة أو لعبقرية نادرة أو لنبوغ فى ميدان الحرب أو ميدان السياسة ، ولكنه وصل إلى هذه القمة قضاء وقدرًا ، كما وصل من قبل إلى المراتب السامية فى الجيش ، دون أن يفتح فتحة ، أو يحرز انتصاراً . وصل إليها كما نقول اليوم : بالأقدمية لا بالكفاية ، لأنه كان أقدم قواد الفرق فى الخدمة . وانتقل من القلعة إلى قصر القائد العام بالأزبكية ، وأظهر من العظمة والبذخ والتباهى ما لا يستطيعه غير «مينو» .

أما زبيدة : فإنها حينما وصل إليها الخبر ، وعلمت أن زوجها أصبح حاكم البلاد ، وأنها أصبحت ملكة مصر كما زُيّنت لها «رابحة» العرافة منذ سنتين - أخذتها نوبة مبهمه مختلطة ، يمتزج فيها السرور بالحزن ، والرضا بالسخط ، والتصديق بالسخرية والازدراء . وفتحت عينها كأنها تستيقظ من حلم مخيف مفرع ، وأخذت تناجى نفسها فى أسى ممضٍ قاتل :

أهذه غاية المطاف؟ وتلك هى الأمنية الخداعة التى أطفأت بها سراج حياتى؟  
ولهذه الصفة الخاسرة بعث جسمى ونفسى؟ ولذلك الأسم الأجوف ضحيت بحب  
محمود الطاهر النقى؟ ذلك الحب الملائكى الذى لومس الهاجرة لعادت نسيماً، أو  
امتزج بالماء لكان تسيماً؟ كيف صدقت هذه الخرافة؟ وكيف أغوانى الشيطان  
بتصديقها؟ أنا ملكة مصر؟ ثم أخذت تضحك كما يضحك الأبله المأفون. أنا ثانية  
شجرة الدر بمصر؟ مرحى! مرحى! أأين عرشى، وأين وزرائى، وأين جيشى  
وأين أمرى ونهى؟ ملكة من أوهاى، وعرش من أحلام، وجيوش من حطام. ثم أين مصر  
التي أنا ملكتها؟ رسوم وأطلال، وأخلاق بالية وأسمال، وأشباح كالظلال. أنا ملكة مصر؟  
ولن أستطيع أن أخرج من دارى، أو أجرد حملة على طاهى مطبخى الفرنسى! يا لضحك  
القدر ويا للسخرية ويا للعار! كيف صدقت أن أكون ملكة مصر؟ حقاً إن بين من يدعون  
العقل كثيراً من المجانين، وإن شر الجنون ما كان خفياً مستوراً. وهذه العرافة «رابحة» -  
قطع الله لسانها - هى التى خدعتنى، ورأت فى عقلى مسلكاً إلى الجنون فسلكته. هؤلاء  
العرافون قد تكون لهم لمحات من الغيب، ولكنهم لا يحسنون تفسيرها. يقولون لرجل:  
أبشر ستكون لك شهرة ولا سمك ذبوع، فيذيع اسمه فى جريمة! ويقولون لآخر: إنك  
ستتزل فى بيت الحاكم، فيسجن! قالت لى رابحة: إنك ستكونين ملكة مصر، ولم تقل:  
إنك ستعتقلين فى بيت حاكم مصر الأجنبى. ويحى على شبابى، وويلى من خيالى  
وأوهامى! لقد فقدت كل شىء، ونكبت بكل شىء، وحصلت وأنا ملكة على غير شىء.

ودخل «سرور» فراها باكية حزينة فقال لها: ما هذا البكاء يا سيدتى؟ نحن  
مؤمنون، وإن الله لا يغير فى لوح القدر ما كتب فيه.

- أعلم ذلك يا سرور، ولذلك أبكى.

- هوئى عليك يا سيدتى، إن الله مع الصابرين.

هكذا كانت حال زبيدة عندما أصبحت سيدة نساء مصر، وقد رَوَّح عنها قليلاً أن  
زوجها انصرف عنها إلى شئون الدولة، وترك لها وقتاً غير قصير تنعم فيه بالبعد عنه.

وتوالت الأيام، وأظهر كل يوم منها تعثر «مينو» فى سياسته، وأبان كل حادث «خلقاً»  
من أبى سعيد عجيباً: فقد عبث بقواد الجيش كما شاء حقه، فعزل منهم من عزل لسخائم  
فى نفسه، ورفع من رفع من غير حق. فذعر القواد لهذه الفوضى وسخط الجنود، وتبددت

وحدة الجيش ، وألف ديواناً جديداً للأحكام ، جعل بين أعضائه صهره العزيز السيد علياً الحمami ، ثم اتجه إلى أهل مصر فأرهمهم بالضرائب الفادحة ، وأكثر من المصادرة وسجن الأبرياء وهدم الدور ، حتى محيت أحياء بأكملها ، وأصبح معظم القاهرة فقراً يباباً ، وبلغت القلوب الحناجر ، وضاق بالناس الخناق ، فأخذوا يهجرون القاهرة أفواجا ، وزاد في سخط الجيش أن زبيدة وضعت له غلاماً فسمّاه : سليمان ، شماته في كبير ، وتنوياً باسم قاتله .

وفي مارس سنة ١٨٠١ م ذاعت بين الناس ذائعة تلقفتها الأفواه ورددتها المجامع ، وتنفس الناس لها الصعداء ، وكان نيكلسون ومحمود العسال يزوران السيد المحروقي في داره ، فوجدا عنده الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، فسأله نيكلسون : ما هذا الخبر الغريب يا مولانا ؟

- لم يصبح الخبر غريباً يا سيدى السوسى ، فقد وصلت عمارة إنجليزية إلى أبى قير ، فهزمت الفرنسيين ونزلت إلى البر ، ودارت معركة بالإسكندرية بالمكان الذى يدعونه بقصر القياصرة ، كانت الغلبة فيها للإنجليز أيضاً ، وسافر «مينو» إلى الإسكندرية ، لتتم الهزيمة .  
- أوافق أنت من هزيمة الفرنسيين .

- كما أتق بالعدل الإلهى . إن الفرنسيين ليسوا كما كانوا أيام بوناپرت ، وقد قضى مينو على البقية الباقية من حماسهم واجتماع كلمتهم ، وراح يبدد جيشه فى كل أنحاء مصر . فكيف يستطيع بفتة قليلة أن تلاقى جيشاً عظيماً ؟ !

- ما رأى سيدنا الشيخ فى الإنجليز ؟

- أخاف أن تكون لهم نية فى مصر ، وأنهم يركبون الترك مطية لأغراضهم .

- إن الإنجليز قوم شرفاء .

- وما شأن هذا بالشرف ؟ إن للكون نظاماً ، والفوز دائماً للقوى يا سيدى .

- هذا الذى يسميه أهل أوربا : نظام بقاء الأصلح .

- سبقهم إلى ذلك القرآن الكريم : ﴿فَإِذَا الزُّبْدُ فِى ذَهَبٍ جَفَاءَ ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فِىمَكْتٌ فِى الْأَرْضِ﴾ وقال عز شأنه : ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

وانفضَّ المجلس وتوالت الإشاعات في كل يوم، ورقص عوام القاهرة وطربوا لكل خبر جديد، وأنشد الصبيان الأناشيد في المكاتب والطرق، وخرج شذاذ «الحسينية» و«العطوف» و«الرميلة» في جموعهم يتحلّون الفرنسيين، ولم تمض أيام حتى وثب جيش من الترك والإنجليز على أرباض القاهرة، فذعر الجنرال «بليار» نائب «مينو» وعقد مع المغيرين معاهدة من شروطها أن يغادر الجيش الفرنسي بلاد مصر في أقرب ما يكفى من الزمان لرحيله.

أما مينو فاضطرب أمره بالإسكندرية وركب رأسه، وقذف بجنوده في غير حزم إلى موت محتوم حتى إذا سقط في يده، ورأى أنه ضلَّ الجادة وتقطعت به وسائل الدفاع، سلّم سيفه مهزوماً، وعاهد الترك والإنجليز في السادس والعشرين من أغسطس سنة ١٨٠١ م على مغادرة مصر، فأقيمت معالم الأفراح في كل مكان. وأشرقت الشمس بنور ربها فبددت غياهب الأحزان، ونظر الفرنسيون إلى الجنوب وهم مبحرون من الإسكندرية، بعد أن تمزقت آمالهم، فإذا أبو الهول لا يزال يبتسم!

## - ١٧ -

كانت زبيدة ذات صباح في غرفتها، وهي في همّ ناصب وحيرة قاتلة. أنفرح لجلاء الغاصبين عن بلادها، أم تحزن لجلالها عن بلادها؟ ولماذا تفارق أهلها وديارها إلى قوم هم عنها غرباء وهي فيهم دخيلة؟ ألهذا الزواج الذي عبث بنسبتها فأصبحت لا شرقية ولا غربية، وبتر ما كان لها من صلات محبوبة من الحب والسعادة والشباب، ونقلها من بيتها التي فيها نشأت، وفي جوّها نمت، وفي ظلال آمالها تفتّأت - إلى بيئة أعجمية أصبحت فيها غريبة الوجه واليد واللسان، كما ينقل النبات من مصر الدفيئة الضاحكة إلى مثالج سبيريا الباكية الحزينة؟ لماذا تفارق أرضها وديارها؟ إن زواجها كان خطرة من وسواس مينوذي الخيال الخصب والعقل العجيب، ولبانة أراد قضاءها في مصر، حتى إذا نبت به مصر، وأزمع عنها الرحيل، تركها وراءه كما يقذف الطفل بلعبته الأثيرة عنده إذا رأى غيرها.

وهنا تنهدت وقالت: كنت لعبة مصرية، وسيجد القائد العظيم بفرنسا لعباً كثيرة تحسن القفز والرقص، وتعرف كيف تستهوى الرجال الذين لهم عقول الأطفال، وبينما هي تغوص وتطفو في هذا الخضم المائج من الأخيلة والأفكار، إذ صاح ابنها سليمان وكان

نائماً، فُهرعت إليه حذبة مشفقة مدللة، وأخذت تناغيه وتناجيه بالفاظ عذبة، تعرف الأمومة العطوف كيف تصوغها، ثم شرعت تحدّثه كأنما تحدث فتى يافعاً وتقول:

ستبقى معى هنا يا فتى العزيز إذا ذهب أبوك إلى فرنسا، سنعيش هنا يا سليمان سعيدين، وستنال من حبي أضعاف أضعاف ما كنت تناله من حب أبيك. إن في قلبي حباً قديماً مكظوماً كتمته وأحكمت سدّه، وقد كنت في أول يوم من الأيام أريد أن أسعد به كما تسعد الفتيات، فجاء أبوك في طريقى فسددته عنه وعن الناس جميعاً، فخذ كله يا سليمان، فإنه حب نقى كماء الغمام، طاهر كصحائف الأبرار، عظيم كموج البحر. إنك إن تذوقته أغناك عن حب أبيك، إنه حب فتاة والهة ضاع أملها، وأم رءوم تحيا مرة أخرى في وحيدها.

وهنا ضحك الطفل - وكان في شهره السابع - وحرك يديه، فقبلته وقالت: أتضحك من أمك يا سليمان؟ أضحك منها كما تشاء فقد ضحك منها أبوك، وضحك منها الناس جميعاً، ولكنك ستبقى لى على كل حال، ريحانة حياتى وقرة عيني. وإذا طلبك أبوك فقل له في رجولة وشهامة: سأبقى مع أمى فاذهب أنت حيث شئت. إن أبناء النيل لا يبعون بمائه الطاهر بديلاً! أنت مصرى يا سليمان. أنت مصرى بلا شك لأنى مصرى، وأنت فلذة منى، فدع أباك الفرنسى يذهب إلى بلاده كما يريد، وتعال نعد إلى دارنا فى رشيد ونجمع حطام تلك الذكريات الحلوة، التى عبثت بها العواصف وبدّتها الخطوب.

ثم طافت بوجهها جهومة قاتمة وقالت: وإذا حتم أبوك أن تذهب معه إلى فرنسا فماذا تفعل؟ أتذهب معه؟ إنك إن فعلت قتلت أمك يا سليمان. إنى أوثر أن تُنزع روحى من جسمى على أن تنزع أنت من يدى. وهنا طرق الباب خادماً «سرور» وكان معه «روفائيل» المترجم جاء يحمل رسالة من مينوقدم بها جندى من الإسكندرية، فأذنت لهما بالدخول. وأخذ روفائيل يترجم الرسالة وكانت موجزة جافة يأمر فيها زبيدة بالرحيل العاجل إلى رشيد، لتدرك السفن التى ستقل جيش الجنرال «بليار» إلى فرنسا، ويهددها فى آخر رسالته بأنها إن أبت الرحيل، فعليها أن تُسلم ولدها إلى مسيو «إستيف» مدير الشؤون المالية، ليحمله إلى أبيه بالإسكندرية.

وما كادت زبيدة تسمع الرسالة، حتى جُن جنونها، وصاحت فى وجه روفائيل:

إذهب وقل لسيدك: إن مخلوقاً فى الأرض لن يستطيع أن يأخذ منى ولدى، ثم قل

لسيدك : إنه لم يعد حاكماً على مصر حتى يتبع معى أساليبه التى قضت عليه وعلى ملكه . ثم قل له مرة ثالثة : إن زبيدة مصرية ، وإن ابنها مصرى ، رغم أنف القوانين التى تأتقتم فى وضعها .

وحيثما سمعت أمها صباحها أقبلت مذعورة ، وكانت فى غرفة بعيدة مع ابنها على الحمامى ، فلما علمت الخبر انفجرت بالبكاء ، ووقف إلى جانبها «سرور» وهو يدافع الدمع فلا يستطيع . وأخذت زبيدة تذكر تاريخها الأسود ، وتعدد ما أصابها من النكبات بين بكاء يمزق الصخر ، ونشيج يذيب الحديد . وكان المترجم «روفائيل» قد خرج بعد أداء رسالته مسرعاً ، فلحق بالمسيو «إستيف» فى دار ديوان الأحكام وأخبره الخبر ، فأسرع إستيف إلى قصر مينو وطلب مقابلة زبيدة ، وكان ينتفض من الغضب ، فلما قابلها قال لها فى حزم وتصميم : إن زواجها بالجنرال لم يكن لعبة لاعب أو سخرية ساخر ، وإنما هو زواج شرعى له كل مطالب الزواج الشرعى ونتائجه . أما أن الجنرال لم يعد حاكماً لمصر ، فتلك مسألة ليس للنساء أن يخضن فيها ، ولكن الذى يعلمه ، والذى يجب على السيدة أن تعلمه ، أن من مطالب الجنرال مينو الأولى عند الاتفاق على نزوح الفرنسيين عن مصر - أن تتخذ الوسائل الأمنية لسفر زوجه وابنه إلى فرنسا . فإذا كان مينو حاكم مصر أو لم يكن ، فإن الترك والإنجليز سينفذون هذا المطلب ، رضيت السيدة أم أبت ، وإذا بلغت بالسيدة رقة العاطفة بحيث لا تستطيع أن تغادر وطنها ، فإننا لن نجرؤ على مسّ تلك العاطفة النبيلة ، ولكننا نكتفى بحمل ابن الجنرال إليه لأنه فرنسى السلالة ، بمقتضى المادة الحادية عشرة من عقد الاتفاق المسجل بمحكمة رشيد .

سمعت زبيدة هذا الحديث أو هذا التهديد فصعقت ، وتطلعت إلى مسيو إستيف فى استعطاف يفتت الصخر ، فلم تجد فى وجهه إلا عبوساً ويبساً ، ثم تنهدت وقالت : ألا ينتظر الجنرال سنة حتى ينمو الطفل قليلاً ويتحمل مشاق السفر؟ فقال إستيف فى إيجاز : السفر غداً .

وهنا هزت زبيدة رأسها وقالت فى شمم اليائس : سأسافر بالطفل غداً ، ويفعل الله ما يشاء . ثم كفكت دموعها وقالت لسرور : أعد كل شىء يا سرور . وهمت أمها بالبكاء فصاحت بها : ليس هذا وقت البكاء يا أماء ، إنما هو وقت الصبر والتسليم لأحكام القدر .

فأعدّ سرور كل شىء للرحيل وحتمت والدّة زبيدة عليه أن يسافر مع سيدته إلى

فرنسا، لأنها لا تطمئن على سلامتها إلا وهى فى حياطة وحراسته . وذاع خبر سفر زبيدة بين أهلها بالقاهرة، فاجتمع فى الصباح بالقصر: السيد المحروقى، وزوجته أمينة، وابنته وابنه، ومحمود العسال ونيكلسون، ولورا . وكانت قتره من الحزن تعلق وجوههم كأنهم جاءوا لتشييع جنازة، ونزلت زبيدة من السلم وحولها أمها وأخوها وسرور، وخادمة تحمل ابنها سليمان، فسلمت على مودعيها واحداً واحداً فى صمت وتجلد . ولما جاءت للسلام على ابن خالتها محمود لم تملك إلا أن تعانقه، وتطبع على جبينه قبله صامته، ثم ترسل زفرة حزينة فيها كل ما فى معجمات اللغة من حب وحنان . ولما همّت لتركب المحفة إلى ساحل بولاق، اتجهت نفيسة إلى سرور وهى تحمل فى يدها كيساً ثقيلاً وقالت هذا الكيس يا سرور به ألف محبوب، فاحفظه معك ولا تنفق منه شيئاً، فإذا وقعت سيدتك زبيدة فى ضائقة فأنفق منه ما تشاء لتخليصها . نحن لا ندرى يا سرور ما يكون، ولكن إياك أن يمسهأ سوء وأنت معها . أنت خير أمين عليها يا سرور، أبذل روحك ومالك فى أن تنجيها لوالدتها الحزينة . فى وداعة الله . . . فى وداعة الله !

وركبت زبيدة المحفة بين بكاء الباكين وعويل المعولين، واختفت عن الأنظار كما يختفى حجر صغير يقذف به فى بحر خضم .

وسار محمود ولورا مع خالته نفيسة حتى بلغا دارهما، وحيثما قالت لورا: لم يعد لنا بقاء بالقاهرة يا محمود .

- إن سرورنا بخروج الفرنسيين ضيع نشوته حزنا على زبيدة، وقد أقمنا بالقاهرة لمناجزة الغاصبين، لذلك أرى ما ترين .

فأسرع نيكلسون قائلاً: لنسافر غداً إذاً مع السيدة نفيسة . ولما عقد الاتفاق على السفر، خرج محمود إلى ابن عمه حسين فأخبره بما عزم عليه، ووجد عنده سعداً الشباسى المراكبى، فعلم منه أنه سيسافر إلى رشيد بعد يومين . فتركهما محمود وأخذ فى الاستعداد للسفر، حتى إذا جاء اليوم الموعود ركبوا فى السفينة إلى رشيد .

- ١٨ -

وصلت السفينة إلى رشيد بعد ستة أيام، والتقى محمود بأمه بعد طول الغيبة، فرآها

لا تزال ملارمة فراشها، ولكنها انتعشت لرؤيته ودبّ فيها دبيب الحياة. ثم قدّم إليها لورا، فقَبِلَتْ يدها في أدب وحياء، وأخذت السيدة زينب تحلّد النظر إليها وتصوّبه ثم صاحت: هذه ابنتنا لورا؟ أين كنت يا بنيتي كل هذه المدة، أيجمل بك أن تتركي خالتك المريضة دون أن تروحي عنها بزيارة قصيرة؟ حقاً إن البعيد عن العين بعيد عن القلب.

فقال محمود: إنها كانت في القاهرة يا أمي منذ دخول الفرنسيين مصر وقد كانت ترعى ابنك محموداً بعطفها، وتمرّضه وهو جريح، حتى عاد إليك رجلاً قوياً يحملك هكذا، ويقبّلك هكذا، ثم حملها وأخذ يغمر وجهها ويديها بالقبل، وهي جدلى فرحة تتصنع الصياح والعريضة. ثم قالت وقد التقطت أنفاسها: إنك لا تزال غلاماً شقيّاً كعهدي بك. وأين أبو لورا؟

- ذهب إلى منزله الذي كان يسكنه «إلياس فخر» المترجم، لأنه رحل مع الفرنسيين... وعادت إليه خادمتة مبروكة، وخادمه عبد الدايم. فاتجهت إلى لورا وقالت: لقد كان منزلك جميلاً يا لورا، كنت كلما زرت مقام سيدى الادفينى عرّجت عليه لأجلس بجانب إحدى نوافذه الشمالية، لأتمتع بشميم أزهار الحدائق حوله. فأسرع محمود وقال: إنه لم يعد منزل لورا يا أمي.

- ألم تقل: إن المترجم رحل عنه، وإن الخواجة نيكلسون عاد إليه...!

- نعم. ولكن لورا يحول الآن بينها وبين سكناه حائل عظيم.

- حائل عظيم! ما هو؟

- فاهتسم نحو لورا وقال:

- الشرع الشريف والحب الشريف.

- فقالت أمه: أنا لا أفهم هذه الألغاز.

- وهذا بعض ما تستحقين، فطالما ربكت عقلى بالأحاجى (الفواير) وأنا صغير لا قبل لعقلى بها.

- دع هذا يا محمود وخبرنى جلية الخبر.

- إن لورا تزوجت.

- ألف مبارك يا لورا . بمن ؟ فقال محمود :

- بمن لا يحب فى الدنيا إلا امرأتين : هى . . وامرأة أخرى تجلس الآن فى سريرها .

- رجعنا إلى الألفاظ . . بمن بحقك ؟ !

- بابتك محمود .

فاتجهت زينب إلى لورا ومدت إليها ذراعيها ، وأخذت تقبلها بين الضحك وانهمار الدموع ، ثم قالت وهى تداعبها : عرفت سر تكرار زيارتك لخالتك المريضة حينما كنت برشيد . ثم ضحكت وقالت : هؤلاء البنات لا يغلبهن غالب حيما يُردن ، وقد خلّفت لهن أمهن حواء تلك الشبكة المحكمة الأطراف التى تصيدت بها أباهن آدم . ألف مبارك . ألف مبارك يا لورا . من مثلى الآن فى رشيد ؟ لى ولد وبنت صوّرهما الله من جمال وحسب وخلق كريم ! الآن لا أحب أن أموت !

ثم أمرت الخدم أن يعدّوا لهما غرفاً خاصة بهما ، وبعد قليل هجس بنفسها هاجس أليم انقبض له وجهها فقالت : لقد علمت بخاتمة نكبة بنت خالك يا محمود ، إنها لمصيبة أخفّ منها الموت . وكيف حال أختى نفيسة ؟  
- جاءت معنا من القاهرة وذهبت إلى دارها .

- مسكينة ! ! لن تجد بدارها أنيساً إلا إذا ائتنس البائس بما يؤلم من الذكريات ! !  
مسكينة ! ! مات زوجها الشهم الذى لم تشرق شمس رشيد على مثله ، وضاعت بنتها غنيمة للفرنسيين ، حتى كأنهم لم ينزلوا مصر إلا لاختطافها ، وبقي لها . . ماذا بقي لها ؟ ! الكل والجزع ، وابنها على الحمامى .

- آه يا أمه ! ! إن رزيثنا فى زبيدة فوق الاحتمال .

فأرسلت أمه نظرة خاطفة إلى لورا وقالت : ذلك قضاء الله يا بنى . من كان يظن أن الشرقى يتزوج غربية ، والغربى يتزوج شرقية ! ! آمنت بالله ، وآمنت بالقدر خيره وشره ! !  
وفى هذا اليوم غير نيكلسون زيه فارتدى ملابسه الإفرنجية ، وطلّق اسم الحاج محمد السوسى إلى غير عودة ، وقابل شريكه «أورلندو» فضبط معه حسابه مدة غيبته ، وعاد إلى متجره بشارع البحر كما كان ، مغتبطاً مسروراً برحيل الفرنسيين ، مزهوّاً فخوراً بأن قومه هم الذين أجلوهم عن البلاد .

واستبشر أهل رشيد بعودة محمود العسال ونيكلسون صديقهم القديم وتوافد عليهما المهنتون. وكان حديث بطولتهما ملء المسامع والأفواه، وزواج محمود بلورا موضع جدل ونقاش بين الفتيات والأمهات.

ومرت سنوات ست على محمود حتى أظلمت سنة ١٨٠٧ م وهو هانىء سعيد بزوجته، وقد زاد بها تعلقاً وزادت به حباً. وفى خلال هذه السنوات اضطربت الأحوال بمصر، واشتد الصراع بين الترك والمماليك، وشايح زعماء المصريين محمد على باشا، فاخترته الأمة والياً على مصر، وتجرّد لمحاربة المماليك واستئصال شأفتهم.

وفى ذات ليلة بينما كان محمود ولورا يزوران نيكلسون، دخل حسين العسال ابن عم محمود، وقال وهو يلهث من التعب: لقد بحثت عنك يا محمود فى كل مكان. جئت اليوم من الإسكندرية وهى فى أشد أحوال الكرب والاضطراب، فقد نزل بها بالأمس جيش إنجليزى واحتل المدينة، والناس فى حال يرثى لها، لأنهم لم يكادوا يفقهون من صدمات الفرنسيين، حتى سقطوا فى أيدي الإنجليز. وقد علمت من الشيخ المسيرى أن قائد هذه الحملة يدعى: فريزر. فبهت محمود وقال فى ذهول: جيش إنجليزى؟

- نعم. فلانى أعرف الراية الإنجليزية، وأميز ملامح الإنجليز من أى جنس آخر. فقال محمود: ولماذا قدموا يا ترى؟ فأجاب نيكلسون وقد أدرك حرج موقفه: إنهم لا يجيئون لامتلاك البلاد، والذى أعلمه أن الدولة العثمانية حالفت نابليون، وقطعت صلاتها بإنجلترا، فخاف الإنجليز أن يستغل الفرنسيون صداقتهم الجديدة للترك فيعودوا إلى احتلال مصر، فجاءوا لدرء الخطر الفرنسى عن مصر. وربما كان مجيئهم استجابة لدعوة من المماليك. فقال محمود ساهماً:

هذا كلام حسن يا صاحبي، وأرجو أن يكون الأمر كما تقول.

فقال نيكلسون: هذا هو الذى أظن.

وبعد أيام كانت رشيد فى قلق واضطراب، فقد شهد الناس من مثذنة مسجد زغلول جيشاً مقبلاً على المدينة. ولم يكن برشيد من العدة وآلات القتال ما تستطيع أن تدرك به جيشاً غازياً، ولم يكن لها من الأسوار إلا أطلال عصفت بها الرياح والأنواء. وما كانت إلا ساعة من نهار، حتى دخل الإنجليز المدينة بغير قتال، فثار السكان وغضبوا، وقام

الخطباء يستحثون العامة على الدفاع ، وكان محمود العسال فى حيرة بين واجبه وحبّه ، فما كان يصح فى عقله أن يقتحم المغيرون مدينته وهو واقف مكتوف اليدين . ولكن لورا؟ أيجارب قومها؟ لقد كاد قلبه لشدة شغفه بها يتسع لحب الإنجليز جميعهم .

جلس حزيناً مفكراً ، وأصوات الناس وعجيجهم تملأ أذنيه ، وهم مسرعون للقتال .

فدخلت عليه لورا وقالت :

- فى أى شىء تفكر يا محمود؟

- أنا فى حيرة يا حبيبتي .

- وفيهم الحيرة؟

- أنا فى حيرة بينك وبين وطني .

- بيني وبين وطنك؟ إن قومي بخير يا محمود ، وإن قومي يمجّدون الشهامة كيفما كانت ، حتى إنهم يمجّدونها فى أعدائهم . وإننى لم أحبك إلا لبطولتك وإقدامك ، وغيرتك على بلادك ، فإذا تخلّيت عن هذه الصفات لأجلى فقد تخلّيت عن حبي . إن زوجي محموداً الذى أحببته فوق كل حب ، وملأت به قلبي غراماً ، وفمى إعجاباً وفخراً ، لن يجلس فى داره كما تجلس العجائز وطلقات رصاص الفاتحين تصمّ المسامع . إنه إن رضى بهذا فإن زوجته لورا لن ترضى . وماذا يقول الناس ، وبم يهيمسون؟ سيقولون : لقد كان محمود محموداً قبل أن يتزوج ، لقد كان بطلاً يلاقي الموت جريئاً بساماً ، فلما فتنته الإنجليزية سلّبت كل صفات الرجولة ، فأصبح فسلاً رعيدياً خائر العزم قليل الغناء . أتحب أن يقول الناس هذا عنى وعنك؟ ثم قهقهت وقالت : لا يا زوجي الباسل أنا أعرف أن شيئاً فى الأرض أو فى السماء لن يحول بينك وبين الدود عن وطنك ، ولو كان ذلك الشىء حبي ، ولكنك تجاملنى يا محمود ، تجامل زوجتك التى ليس لها سواك ، والتى تحب فيك الهمة ومضاء العزيمة .

- نعم أجاملك يا لورا ، ولكنى لو لم أنل رضاك لسرت إلى القتال مشّت القلب مثقلاً بالهموم .

- لا يا حبيبى سر على بركة الله مجمّع القلب باسم الوجه ، وعد إلى زوجتك الوالدة مظفراً منصوراً .

فوثب إليها يقبلها وتقبله فى شغف وحنان، وقد امتزجت الدموع بالدموع، وتلاقت الزفرات بالزفرات، ثم اختطف بندقيته وقفز إلى باب الدار ليلحق بالجموع الزاخرة التى شمرت للدفاع عن المدينة.

وكان الحشد عجبياً حقاً: اجتمع فيه الرجال والنساء والشيوخ والأطفال وكانت العصى والحجارة أكثر ما يُزهى به هذا الجيش من عدد القتال. فتقدم محمود الجمع، ودعا إلى الهجوم بين تهليل المهللين وتكبير المكبرين، وكان القتال فى الحارات والبيوت، واستمرت المعركة ساعات سقط فيها عدد غير قليل من الجانبين. ولما احتدم القتال ولاح النصر فى جانب أهل المدينة، ورأى محمود رابية لا تزال تتحصن بها ثلة من الجنود، فدعا بعض الفتيان إلى محاصرتهم، ولكنه لم يكذب يتقدم منهم قليلاً حتى رماه أحدهم برصاصة اخترقت صدره فسقط على الأرض صريعاً.

وهنا ثار السكان ووثبوا وثبة رجل واحد، فتراجع الغزاة وغادروا المدينة، وعاد الجموع يحملون جثة محمود بين البكاء والحويل، حتى وصلوا إلى بيته، فهُرعت لورا المسكينة إلى زوجها المقتول نادية باكية، ورمت بنفسها عليه تعانقه وتقبله، وتخطبه كأنما هو حى مدرك؛ بألفاظ تقطع نياط القلوب، وعبارات تستنزف ماء العيون، حتى إذا حاول أبوها وحسين العسال أن يواريا عنها الجثة، صاحت بهما غاضبة صاخبة: اذهبا إلى شأنكما، ودعاني أقبله فإن الحب لا يعرفه إلا من يكابده، ودعاني أحنه فإنه يأنس لحديثي ويضطرب لنبرات صوتي، ثم انكبت عليه ثانية، وهى تقول: محمود يا حبيبى: أحقاً عدت منصوراً وجئت إلى زوجتك الحبيبة تطلب أجر بطولتك؟ هذه قبلة، وهذه قبلة أخرى، أهذا يكفيك يا نور عيني؟ لا يكفي؟ أنت ولد طماع جشع! خبرنى بالله ماذا فعلت؟ تقدمت الصفوف كمياً شجاعاً، وسخرت من الموت جريئاً ثيهاً، وذكرت زوجتك الغالية فوثبت غير هيّاب لتحظى بحبها وإعجابها؟ لم يبق لى حب أذكره يا محمود، لقد أخذته كله، ولم أترك فى نفسى إعجاباً إلا توجت رأسك به. إنك لم تمت يا محمود. قل إنك لم تمت! هؤلاء المساكين الذين حملوك إلى، يظنون أنك ميت لا ترجى! كذبهم يا محمود، وقل لهم إنك حى، وإن مثلك لن يموت.

ثم حمل البطل إلى الدار، وبقيت لورا طول الليل إلى جانبه تحادثه وتقبله، حتى خاف أبوها عليها الجنون، فأخذ يهذىء من نفسها، ويذكرها بما يجب من التسليم

لأحكام الله، ويدعوها إلى الجلد والصبر، فسكنت بعض السكون، واستسلمت إلى البكاء، وفي البكاء شفاء المحزونين.

وفي الصباح هرع الناس للاحتفال للجنازة، وأخذ المؤذنون فوق المآذن يشيدون ببطولة الراحل ويمجدونه، ويستمطرون عليه الرحمات، وازدحم مسجد المحلى بالجموع التي أقبلت للصلاة عليه واجمة حزينة، ووقف الحاج عبدالله البربر، فأنشد قصيدة في رثائه، بكى فيها وأبكى الناس. كان من أبياتها:

محمودٌ إن حَمِدَ العزَاءُ فإنه في يوم خطبك ليس بالمحمود  
لم يبق في سوى الدموع فهأكها دُفَاقَةً. والجودُ بالموجود

ثم حمل أعيان المدينة النعش على أعناقهم إلى مدفن شهاب، وعاد المشيعون يرددون الدعوات ويرسلون الزفرات.

أما لورا: فقد أصابها طائف من الذهول، فكانت تخرج في كل صباح مع خادمتها مبروكة ذاهلة مأخوذة كأنها تمشي في حلم مزعج مخيف، فتذهب إلى الحدائق لتجمع أنضر أزهارها، ثم تتجه إلى قبر زوجها فتشرها فوقه، وتجلس مطرقة صامته حتى يظلم الليل، فتعود مع الخادمة. وقد اعتاد الناس هذا المنظر، فكانوا إذا مرّت بهم أطرقوا في خشوع، واتجهوا إلى السماء يسألون لها الصبر، ولبطلهم الرحمة. وكان الأطفال يسمونها: بالسيدة الحزينة. ولقد طالما تسابقوا إلى جمع الأزهار لها، ليظفروا منها بتلك النظرة الباكية الحنون.

وفي إحدى الليالي الممطرة المظلمة، سمعت السيدة نفيسة طرقة على باب دارها، فأيقظت خادمتها لتفتح الباب. وما هي إلا لحظة حتى صعد سرور ومعه سيده زبيدة، فلما رأت زبيدة أمها سقطت بين ذراعيها باكية، وطفقت تقبلها وتهنئ بكلمات متقطعة. أما أمها: فقد أدهشتها المفاجأة، فأخذت تهذي وتبكي، ثم تفتج عينيها واسعتين لترى أفي يقظة هي أم في منام. فلما سرى عنها قليلاً تأملت فئاتها المحبوبة، فرأت هزلاً وسقماً، ووجهها شاحباً شاعت فيه الغضون، وبحثت عن جمالها الرائع فلم تجد منه إلا بقية من آثار جالدت المصائب فلم تستطع أن تعصف بها فهزت رأسها في شجن وأسى واتجهت إلى سرور فقالت: قل لي كل شيء يا سرور. فزفر سرور زفرة طويلة ثم قال: سافرنا من رشيد إلى فرنسا ثم لحق بنا الجنرال مينو بعد شهر، وأقمنا بباريس، وفي هذه المدينة تبدلت

أخلاق الجنرال، فكان خشناً، كثير الصخب سريع الغضب، وقد انصرف إلى سهرات الليل وغشيان الحانات. وكنت دائماً أوصي سيدتى بالصبر، وأدعوها إلى مقابلة هذه الجفوة بالازدراء. ثم رحلنا إلى إيطاليا في مدينة يسمونها «تورينو» فزادت حدته، وتضاعف احتقاره لسيدتى بما لا يُحتمل. ثم هجر المنزل، وترك سيدتى تقاسى غصة الفقر وألم المهانة. ولم نصبر هذه المدة الطويلة على هذا الأذى، إلا من أجل ابن سيدتى سليمان، ولكن الجنرال شمر أخيراً على ساعديه، وضرب الضربة القاصمة فأرسل ابنه إلى فرنسا ليضعه في إحدى الأسر الشريفة لتثقيفه وتعليمه. وعندئذ لم يبق في قوس الصبر منزع، ولم تجد سيدتى في البقاء بإيطاليا - بعد أن انتزع ابنها منها - إلا موتاً بطيئاً تحيط به الهموم والأحزان، فغزنا على الفرار، وأخرجت كيس المال الذى أودعته عندي يوم رحيلنا، فسافرنا خفية في ظلام الليل إلى مدينة تسمى «نابلى» ومنها ركبنا سفينة إلى الإسكندرية، فوصلنا إليها أمس، ثم اكرتينا بغلين إلى رشيد. فتتهدت نفيسة وقالت: نعم ما صنعت يا زبيدة!!

- إن عودتى يا أمى لن تصلح شيئاً مما تهدم من حياتى.

- ستعيشين بجانب أمك هائلة سعيدة، وستمحو الأيام تلك الذكريات القاسية، فإن كل شيء ينسى يا بنيتى فى هذه الحياة.

- إلا الشباب الضائع.

- كوني سلوى لأمك يا فتاتى، ولا تزيدى بالله فى أشجانها.

- كما تشائين يا أمى. كيف حال ابن خالتى محمود؟

فوجمت نفيسة وسقط في يدها، لأنها ما كادت تظفر بتهدة بنتها حتى اصطدمت بسؤال يثير الآلام. ولكنها جمعت شجاعتها وقالت: إن هذه الدنيا لا يُركن إليها يا زبيدة.

- ما معنى هذا؟

- لقد قامت حرب بالمدينة منذ شهر، كان محمود بطلها المغوار.

- أجرح؟

- نعم جرح جرحاً بالغا.

- وكيف حاله الآن؟

- إنه الآن لا يتألم يا زبيدة. إنه فى جنات النعيم !!

فشهقت زبيدة شهقة كادت تُودى بها، ثم اشتدت بها نوبة بكاء، وأخذت تهرف وتهذى وتقول: إنه كان حياتى يا أمى. لقد وهبت له حى وقلبى على الرغم من قسوة الأقدار، ووقوف الدهر بينه وبينى. لا أمل فى الحياة بعد محمود، ولا طعم للحياة بعد محمود!!

فعدت أمها إلى تهدئتها وتسكين ثورتها، وانقضى الليل كله فى بث وبكاء، ومحاولة للتصبر والعزاء.

وعندما بزغت الشمس سألت زبيدة أمها عن مكان قبر محمود، وأخذت معها سروراً، فانطلقت إلى القبر هالعة جازعة، حتى إذا بلغته رأت امرأة جاثية عنده، مطرقة ذاهلة، فلم تتبين وجهها. فجثت قُبالتها فى صمت وخشوع، ثم غلبتها الزفراء فتنبهت المرأة ورفعت رأسها، وحين نظرت زبيدة إليها من خلال الدموع صاحت:

لورا؟ أنت لورا؟ ونظرت إليها لورا نظرة المذهول وقالت:

زبيدة؟ أحقاً أنت زبيدة؟ ثم غلبهما البكاء فاطرقتا، وطال هذا الإطراق، حتى إذا قلق سرور لطول صمتها قام فرأى لهوله أنهما فارقتا الحياة، فأسرع إلى سيدته فأخبرها الخبر الأليم.

وشاع الأمر فى المدينة، فجاء السيد على الحمامى وجاء نيكلسون، وتزاحم الناس فحملوا الجثتين. وبعد صلاة الظهر احتفل أهل رشيد لجنائزتهما، ووضعوهما فى نعش واحد، ودفنوهما فى قبر واحد.

وإذا ذهبت إلى رشيد اليوم وقصدت إلى مدفن شهاب، رأيت قاعة طال القدم على جدرانها، بها قبر نُثرت عليه الأزهار، ورأيت رخامة كتب عليها بخط الثلث الجميل:

(هذا قبر الشهيدين)

أمامك قصة عن مجد قومٍ مناصلُ إن دُعوا للحرب لَبَّوْا نجومٌ ما بدت إلَّا لتخفى سلوا التاريخَ عنها إن أردتم	تقشع عن سمايهمُ السحابُ وإن نودوا لمكرمةٍ أجابوا كما يعلو على الماء الحبابُ ففى صفحاته خُطَّ الجوابُ بدر الدين على الجارم
--	---

## الفهرس

### صفحة

٥	تقديم
٧	فارس بنى حمدان
٩٥	الشاعر الطموح
١٨٩	خاتمة المطاف
٢٧٣	قصة العرب فى أسبانيا
٤٢٧	شاعر ملك
٥٠٥	هاتف من الأندلس
٦٦٧	الفارس المثلّم
٦٨٩	مرح الوليد
٧٦٥	سيدة القصور
٨٤٣	غادة رشيد



رقم الإيداع : ١٩٨٨/٥٢٦٨  
التقديم الدولي : ٦ - ٢٥٥ - ١٤٨ - ٩٧٧

## مطابع الشروق

القاهرة ١٩٦٠م - شارع مصر - ٣٣٨١٤ - ٣٣٤٥٧٨ - بولاق - شبراخيت - مصر  
شبراخيت ١٩٦٠م - ٨٠٦٦ - ٣٣٨٥٩ - ٨١٧٧٦٠ - ٨١٧٧٦٠ - بولاق - شبراخيت - مصر  
SHOROK UN - ٨٠٦٦ - ٣٣٨٥٩ - ٨١٧٧٦٠ - ٨١٧٧٦٠ - بولاق - شبراخيت - مصر  
SHOROK UN - ٨٠٦٦ - ٣٣٨٥٩ - ٨١٧٧٦٠ - ٨١٧٧٦٠ - بولاق - شبراخيت - مصر









عرفنا المرحوم على الحارم شاعراً كبيراً ، وعرفناه لغوياً متمكناً تم اختياره عضواً بمجمع اللغة العربية منذ انشائه ، وانتشرت كتبه في النحو والبلاغة في جميع البلاد الناطقة بالعربية هدياً وإرشاداً للمتعلمين . ثم عرفناه ناثراً قصاصاً عندما كتب رواياته الأدبية ، هذه الروايات التاريخية التي كتبها بأسلوب شاعر فوجأت نموذجاً للأدب الرفيع واللغة الأصيلة التي عرف بها الحارم من خلال كل إنتاجه .

وتقدم للمكتبة العربية هذا المجلد الذي يضم القصص التاريخية كاملاً وهي : فارس بن حمدان ، الشاعر الطموح ، خاتمة المطاف ، قصة العرب في أسبانيا ، شاعر ملك ، هاتف من الأندلس ، الفارس المثلث ، مسرح الوليد ، سيدة القصور ، غادة رشيد . إن النثر الأدبي البليغ لأديبنا المرحوم على الحارم إنما يدل على موهبة فنية أصيلة جعلت من كتاباته جميعها ما جعلنا نستوحى اسم « سلاسل الذهب » لهذه المجموعة القصصية النثرية التاريخية الرائعة .